حول تفسير

سُورَةُ الفَاتِحَة

أم القرآن الكريم

بقلم

الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله عنه

يُطلب من مكتبة دار الفلاح

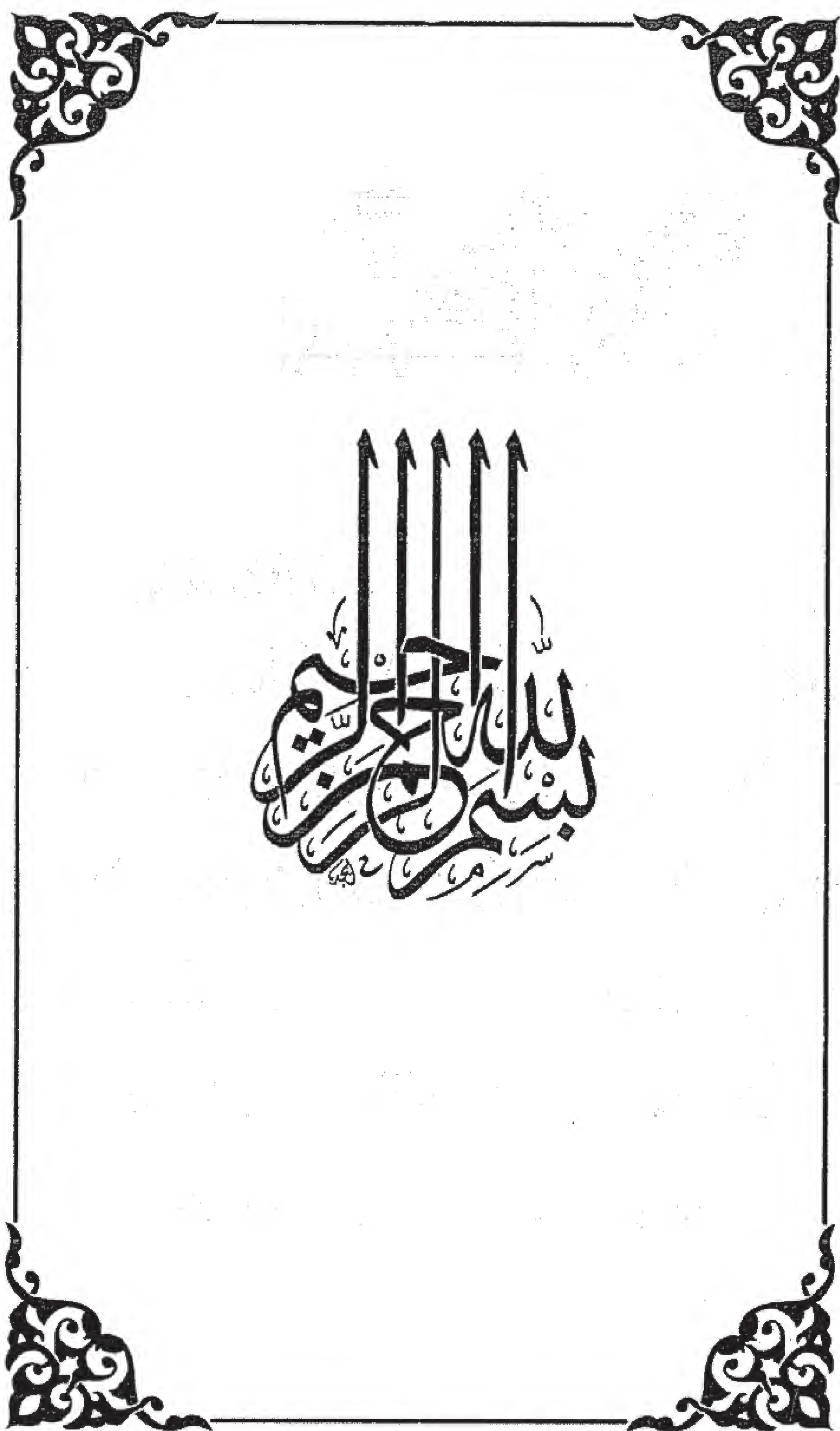
حلب - الفيل - أمام جامع أسامة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن أكابر المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنه هو السميع العليم

آمين


بسم الله الرحمن الرحيم

حول

تفسير سورة الفاتحة

أم القرآن الكريم

بقلم

عبد الله سراج الدين

مكتبة دار الفلاح

حلب - أنيول

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

مطبعة الصباح
دمشق هاتف : ٢٢٢١٥١٠
عدد النسخ (١٠٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم ، على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأكرم الأولين والآخرين على ربِّ العالمين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد:

فهذه كلمات في التفسير موجزة ، تُعبر عن بعض معاني سورة الفاتحة ، التي هي أم القرآن الكريم ـ لعل الله تعالى ينفعني بها ، وينفع بها من اطَّلع عليها ، وهي في الحقيقة تدور حول بعض معاني سورة الفاتحة ، لأن بحر معانيها وعلومها؛ ومعارفها وأسرارها؛ هو بحر لا ساحل له.

فقد قال أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه: لو تكلمت لكم على سورة الفاتحة لأوقرت سبعين بعيراً. اهـ.

والمعنى: لو تكلم على ما فهَّمَهُ الله تعالى من معاني سورة الفاتحة ، لملأ كُتباً كثيرةً يحتاج حملها لسبعين جملاً.

وقال العلامة فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى: اعلم أنه مرَّ على لساني في بعض الأوقات أنّ سورة الفاتحة يمكن أن يستنبط

من فوائدها عشرة آلاف مسألة ، فاستبعد ذلك الحسّاد ، فشرعت في تصنيف هذا الكتاب ـ يعني تفسيره ـ وقدمت له مقدمة لتصير له كالبينة على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول . ا هـ.

وإن معاني كتاب الله تعالى لا تنتهي؛ وإن عجائبه لا تنقضي، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كتاب الله تعالى: فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبَّار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى في غيره الهدى أضله الله تعالى.

وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يَخْلَق على كثرة الرد[1] ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾.

من قال به صدق ، ومن عمل به أُجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم»[2].

وإنّ معارفه وعلومه لا تنفد على مدى العوالم ، وقد ورد أنّ أهل الجنة لا يزالون يقرؤون القرآن ويترقون به ، وتنجلي لهم منه المعارف والعلوم ما شاء الله تعالى.

روى البخاري ، والترمذي وغيرهما ، عن عبد الله بن عمرو

---

(١) أي: لا يُملّ ولا يُسأم منه على كثرة ترديده بل هو غض طريّ دائماً.
(٢) رواه الترمذي عن أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله تعالى وجهه ورضي الله عنه.

رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق، ورَتِّل كما كنت ترتِّل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» فهو في الجنة يقرأ ولا يزال يرقى.

وأعظم موقف تتجلى لهم فيه المعارف الإلٰهية، والأسرار القرآنية، حين يسمعون القرآن من ربِّ العالمين سبحانه وتعالى.

جاء في (الفردوس) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كأن الخلق لم يسمعوا القرآن حين يسمعونه من الرحمن يتلوه عليهم يوم القيامة».

ويشهد لهذا الحديث ما رواه الحكيم الترمذي مرفوعاً: وفيه: «فلا تَقرّ أعينهم كما تقر بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم من ذلك ولا أحسن منه»(١) الحديث.

فأقول وبالله التوفيق، لبيان الحق وللسير على أقوم طريق:

سورة الفاتحة مكية عند الأكثرين، وتُعد من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، أي: هي ثالث ما نزل.

وقيل: إنها أول ما نزل ولكن رده الجمهور، فأول ما نزل خمس آيات من أول سورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ثم بعد فترة من الوحي نزلت خمس آيات من أول المدثِّر، ثم نزلت سورة الفاتحة كما ثبت عند المحققين من العلماء.

وقال بعض السلف: إنها مدنية.

---

(١) وقد ذكرت نص الحديث في كتابي (تلاوة القرآن المجيد) فارجع إليه.

وقال بعضهم: نزلت مرتين: في مكة حين فرضت الصلاة ، وفي المدينة لما حولت القبلة إلى الكعبة المعظمة ، ولها أشباه ونظائر من بعض السور ، وبعض الآيات في تعدد نزولها؛ لأسباب وحكم ليس موضع بيانها هنا[1] .



---

(١) وإنما موضع بحثها وأمثالها مما يتعلق بنزول القرآن الكريم ومراتب نزوله وبيان أسباب النزول ، ذلك يذكر في مقدمة علم التفسير إن شاء الله تعالى.

حكم التعوذ بالله تعالى قبل قراءة القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية الكريمة أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم إذا أراد أن يقرأ القرآن الكريم ، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ. . . ﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

والأمر بالتعوذ يعم جميع الأمة ، وإنما وُجِّه الخطاب إليه صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما في كثير من الآيات القرآنية ـ لأنه صلى الله عليه واله وسلم هو موضع الخطاب من الحق إلى الخلق ، وهو الوجه الأول المتلقي عن الحق ، ثم هو صلى الله عليه وآله وسلم يوجه الخطاب إلى العباد.

فإنه صلى الله عليه وآله وسلم وجه الخطاب ، وواسطة السؤال والجواب ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ الآية.

والمعنى: أنت يا رسول الله واسطة السؤال عني ، وأنت واسطة الجواب مني لهم.

والكـلام في التعوذ لـه وجـوه متعـددة: أهمهـا ما يلي: أولاً: حكمه ، **ثانياً**: صفته ، **ثالثاً**: معناه ، **رابعاً**: ذكر أهم المواضع التي يسن بها التعوذ.

الأول في حكم التعوذ:

هو سنة عند الجمهور أمام القراءة في الصلاة وغيرها ، ولكن في الصلاة يتعوذ فى الركعة الأولى عند الحنفية ، وأما عند الشافعية فهناك روايتان: رواية بالاكتفاء بالتعوذ في الركعة الأولى من الصلاة ، ورواية في كل ركعة من الصلاة.

وذهب بعض العلماء ومنهم عطاء إلى وجوب الاستعاذة ، سواء كانت القراءة في الصلاة أو خارج الصلاة؛ أخذاً بظاهر الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ فإن الأمر يقتضي الوجوب ما لم يصرفه عن الوجوب صارف ، وليس ثمة صارف عند عطاء وغيره.

وقال الجمهور: بل الاستعاذة سنة للقراءة في الصلاة وغيرها ، والصارف عن الوجوب هو عدم مواظبته صلى الله عليه وآله وسلم عليها ، فإنَّ أفعاله وأقواله هي بيان للقرآن وأحكامه ، وقد وردت أحاديث كثيرة فيها القراءة بدون تعوذ:

كحديث أبي سعيد بن المعلى كما في البخاري حين دعاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان أبو سعيد يصلي فلِم يجبه ، ثم أجابه بعد الفراغ من الصلاة.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «ما منعك أن تجيبني»؟

فقال: إني كنت أصلي.

فقال له: «ألم يقل الله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾

ـ ثم قال له صلى الله عليه وآله وسلم: ـ لأعلمنّك سورة هي أعظم سورة في القرآن: «﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾» الحديث، وسيأتي نصه تاماً إن شاء الله تعالى.

ونظيره حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، عندما سأله صلى الله عليه وآله وسلم عن أيّ آية في كتاب الله أعظم.

وحديث لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ فشقَّ ذلك على الصحابة وقالوا: يا رسول الله وأيّنا لم يظلم نفسه؟ ـ أي: لم يفعل ذنباً ولو من صغائر الصغائر.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ هو الشرك» أي: ولم يلبسوا إيمانهم بشرك.

وغير ذلك من الأحاديث التي فيها ذكره صلى الله عليه وآله وسلم آيات من القرآن الكريم ولم يأت فيها بتعوّذ.

وقد أجاب من استدل على وجوب التعوذ بأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتعوّذ سرّاً ـ والله تعالى أعلم.

والحكمة في مشروعية التعوذ عند إرادة القراءة هي: **أن قراءة القرآن الكريم هي عبادة عظمى وقربة كبرى** .

والدليل على أنها عبادة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

فمن قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة ، ولو بغير فهم ولا حضور قلب ، والحسنة بعشر أمثالها ، فإذا كانت عن فهم أو حضور قلب تتضاعف إلى سبعين إلى سبعمائة وإلى ما هنالك.

وأما أَنّ تلاوة القرآن الكريم هي قربة إلى الله تعالى ففي حديث الترمذي وغيره ، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وما تقرَّب العباد إلى الله تعالى بمثله» ـ أي: بمثل القرآن الكريم ـ.

فإذا كانت تلاوة القرآن الكريم عبادة وقربة إلى الله تعالى ، فهي تتطلب الإخلاص فيها لله تعالى ، وإحضار القلب ليعظم الأجر ، وإنّ من شأن الشيطان أن يوسوس للإنسان إذا دخل في عبادة ، ويشاغب عليه ، فيوسوس له ليشغل قلبه عن الحضور ، وليشوش عليه في بعض الأمور ، فجاء الأمر الإلهي بالتعوذ عند قراءة القرآن الكريم؛ ليكون في عياذ منيع من تلك الوساوس ، وحرز حصين ، وبذلك يحضر القلب ، وينشرح للتلاوة ، وينفتح القلب ليتذوق تلك الحلاوة ، وبذلك يضاعف له أجر التلاوة.

الثاني صفة ـ صيغة ـ التعوّذ:

ذهب الجمهور من القراء والمحدثين وغيرهم إلى أن كيفية التعوذ قبل القراءة هي: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وهي أكثر الروايات الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يستعيذ كذلك.

روى الواحدي والثعلبي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «يا ابن أم عبد قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم».

وقد جاء في (صحيح) البخاري وغيره، في حديث الرجل الذي اشتد غضبه، أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ما يجده ـ أي: غضبه الشديد ـ لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. . .» الحديث كما سيأتي بتمامه إن شاء الله تعالى ص / ١٥ /.

نعم قد جاء في الأحاديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم كيفيات من التعوذ فيها زيادات على ذلك.

روى أبو داود، والبيهقي، عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ في ذكر الإفك ـ قالت: فجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكشف عن وجهه الشريف وقال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾» الآية.

ورويا أيضاً ـ واللفظ لأبي داود ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام من الليل كبر ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك»، ثم يقول: «لا إله إلا الله» ـ ثلاثاً، ثم يقول: «الله أكبر كبيراً» ـ ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ من همزه ونفخه ونفثه» ثم يقرأ القرآن).

وقد روى نحو ذلك ابن ماجه، عن عمرو بن مرة وقال: همزه: الْمُوتَة، ونفثه: نفخ بلا ريق، ونفخه: الكِبْرُ.

وقال ابن ماجه: الْمُوتَة يعني: الجنون، والنفث: نفخ الرجل من فيه من غير أن يخرج ريقه، ونفخه: الكبر والتيه.

فللشيطان تخبيل للإنسان، وهو نوع من الجنون، ونفثات يوجهها على الإنسان، وقد يتيه الإنسان.

فينبغي للمسلم أن يستعيذ بالله تعالى من ذلك كله.

والكلام على التعوذ هو مفصل في كتب القراءات.

الثالث في معنى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

أعوذ بالله: أتحصَّن بالله تعالى، وأستجير به، ملتجئاً إليه لأجل أن يحفظني من شر الشيطان الرجيم، ووسواسه، وإفساده عليَّ أمر ديني أو دنياي، فإنه لا يحفظ العبد ويجيره من الشيطان الرجيم: إلا الله تعالى ربّ العرش العظيم.

والشيطان: في اللغة العربية مشتق من شطن إذا بعُد، فهو شيطان - أي: بعيد عن الله تعالى، وعن رحمة الله، وعن كل طبع وخصلة تأتي بخير، فهو على وزن: فَيْعَال.

وقال بعض علماء اللغة: إنه مشتق من شاط إذا احترق، لأنه مخلوق من نار، فهو على وزن: فعلان - والأول أصح.

ويقال لمن تمرّد وتباعد عما يُرضي الله تعالى من إنس أو جنّ شيطان، قال تعالى: ﴿... شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وفي (المسند) عن أبي ذر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله

عليـه وآلـه وسلم قال: «يـا أبـا ذر تعـوَّذْ بـالله من شيـاطين الإنس والجن».

فقلت: أوَ للإنس شياطين؟

قال: «نعم».

والرجيم: معناه المرجوم، وأصل الرجم الرمي بالحجارة، فالشيطان رجيم مرمي بلعنة الله تعالى، ومطرود عن رحمته، فهو طريد مهين.

ولولا أن للشيطان تأثيراً في الشر والفساد على ابن آدم؛ ما أمرنا الله تعالى أن نستعيذ بالله منه، فإنه لا يقينا شرَّه وضرَّه ووسواسه وهمزاته ونفثاته إلا الله العلي العظيم ـ أعاذنا الله العظيم من الشيطان الرجيم، ومن شياطين الإنس والجن كلهم.

وقد علَّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته التعوذ بالله من الشيطان الرجيم في مواضع متعددة بصيغ متنوعة.

الرابع: التعاويذ التي ينبغي الاهتمام بها:

١ ـ عند اشتداد غضب الإنسان إذا اختصم مع غيره:

وقد تقدم ص /١٣/ حديث الرجل لما اشتد غضبه... وهو متفق عليه، ولفظ مسلم:

عن سليمان بن صُرد قال: (استبّ رجلان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه، وتنتفخ أوداجه، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

فقام رجل ممن سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال: هل تدري ما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم آنفاً؟ قال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ـ أي: الغضب ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

فقال له الرجل: أمجنون تراني).

فلا تغضب يا أخي ، وإذا غضبت فتعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

٢ ـ التعوذ عند إرادة الخـلاء:

روى ابن أبي شيبة وغيره ، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل ـ أي: أراد أن يدخل ـ الكنيف قال: «بسم الله، اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث».

والمقصود من التسمية هنا إلقاء الستر بين الجن وبين عورات ابن آدم ، كما جاء في (سنن) الترمذي وابن ماجه ، عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ستر ما بين الجن وعورات ابن آدم إذا دخل أحدهم الخلاء ـ أي: أراد الخلاء ـ أن يقول: بسم الله».

فالتسمية هنا للستر، والتعوذ للتوقي والحفظ من تحرش الشيطان ـ فافهم سر التسمية والمقصود منها حسب المواضع الواردة.

٣ ـ التعوذ عند دخول المسجد للحفظ من وسواس الشيطان في الصلاة والعبادة وغير ذلك:

روى أبو داود ، عن ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وبسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم»، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا قال العبد ذلك: حفظ منه ـ أي: من الشيطان ـ سائر اليوم» وسيأتي أنه تُسنّ التسمية أيضاً والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند دخول المسجد ص/ ٤٦/.

٤ ـ التعوذ عند إرادة السفر:

روى الترمذي، عن عبد الله بن سِرجس قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا سافر يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وَعَثَاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في المال والأهل، ومن الْحَوْر بعد الكور، ـ أي: من الفساد بعد الصلاح ـ ومن دعوة المظلوم، اللهم اصحبنا في سفرنا هذا، واخلفنا في أهلنا».

٥ ـ تعوذ المسافر إذا حلّ في مكان أو نزل منزلاً:

روى مسلم، والترمذي، عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها، أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق ـ لم يضره شيء حتى يرتحل».

٦ ـ التعوذ من شرور الشياطين، والتحصن من إيذائها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت ليلة أسري بي عفريتاً من الجن يطلبني بشعلةٍ من نار، كلّما التفتّ رأيته.

فقال لي جبريل عليه السلام: ألا أعلمك كلمات تقولها فتطفئ

شعلته ، ويخرّ لفيه» ـ أي: يسقط على وجهه ـ؟.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بلى».

فقال جبريل عليه السلام: قل: أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وشر ما يخرج منها، ومن فِتَنِ الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار؛ إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمَن».

وفي (مسند) الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن خنْبش رضي الله عنه أن رجلاً سأله كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة كادته الشياطين؟

فقال: (إن الشياطين تَحدَّرت تلك الليلة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأودية والشعاب، وفيهم شيطان بيده شعلة من نار، يريد أن يحرق بها وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهبط إليه جبريل عليه السلام فقال له: يا محمد قل.

قال: «ما أقول؟

قال ـ جبريل عليه السلام ـ: قل: أعوذ بكلمات الله التامات: من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمَن».

فطفئت نار الشياطين وهزمهم الله عز وجل)[1].

---

(١) المسند: ٣/ ٤١٩.

٧ ـ التعوذ من الفزع في النوم والأرق:

روى أصحاب السنن، وأحمد وغيرهم، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمنا كلمات نقولهنَّ عند النوم من الفزع: «بسم الله، أعوذ بكلمات الله التامَّات من: غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون».

وروى الإمام أحمد وغيره، عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله إني أجد في النوم وحشة، وفي رواية: إني أروَّع في منامي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من: غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون ـ فإنه لا يضرك».

٨ ـ التعوذ من الهوام ومما يَلْدَغ:

روى الترمذي وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال حين يمسي ثلاث مرات: أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق ـ لم يضره لدغة حية في تلك الليلة».

وفي رواية البيهقي: «لم يُلدغ ولم يضره» ـ أي: لا يضره لدغة أيّ هامة تلدغ، من حية أو عقرب أو غيرهما.

٩ ـ التعوذ إذا سمع نهيق الحمير أو نباح الكلاب:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم: «إذا سمعتم أصوات الديكة[1] فسلوا الله من فضله[2] ، فإنها رأت ملكاً.

وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا الله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً» رواه البخاري ومسلم ، والترمذي وأبو داود وغيرهم.

وروى الإمام أحمد ، وابن حبان وغيرهما ، عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمير بالليل فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنهن يرين ما لا ترون» الحديث.

١٠ ـ التعوذ إذا رأى في النوم ما يكرهه أو يحزنه:

روى الإمام مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الرؤيا الصالحة من الله تعالى ، والرؤيا السوء من الشيطان ، فمن رأى رؤيا فكره منها شيئاً: فلينفث عن يساره ، وليتعوَّذ بالله من الشيطان ـ أي: بعدما يستيقظ ـ ولا يخبر بها أحداً.

فإن رأى رؤيا حسنة فَلْيُبْشر ولا يُخبْر بها إلا مَنْ يحب».

وروى البخاري وغيره نحو هذا الحديث.

* * *

---

(١) قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى: الديكة: بكسر ففتح جمع ديك ويجمع قليلاً على أدياك وديوك. ا هـ.

(٢) لأن الدعاء بحضور الْمَلَك مُجاب لتأمينه على الدعاء ، واستغفاره له ، ونزول الرحمة بحضوره. قال العلماء: وهذا يدل على استحباب الدعاء عند حضور الصالحين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الكلام على البسملة يتناول أمرين:

الأمر الأول: شرح مفرداتها:

الاسم: هو ما دلَّ على مسماه، **فقد يُراد به الاسم نفسه**، نحو: كَتَبْتُ الله، أي: هذا الاسم، ونطقت بالله، أي: بهذا الاسم، **وقد يراد به المسمى** نحو: عبد الله، قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ فالمراد به المسمى.

والله هو اسم عَلَمٌ، دالٌّ على ذات الله تعالى رب العالمين الإلّه المعبود حقاً، **متصفاً** بجميع الكمالات المطلقة التي لا تُعدُّ ولا تحصى، ولا تحدّ ولا تستقصى، **ومنزهاً** عن جميع العيوب والآفات، المتفرد بوجوب الوجود، ولم يتسمَّ بهذا الاسم غيره سبحانه، ولن يتسمَّ به غيره، ولذا لم يُثَنَّ ولم يجمع.

وهذا الاسم الجليل له خصائص متعددة أذكر بعضاً منها:

١ ـ هذا الاسم هو جامع الأسماء الإلـهية الظاهرة والباطنة، على الوجه الذي لا نهاية له كما هو أهله سبحانه، لأن أسماءه تعالى هي على حسب صفات كماله، وصفات كماله ما لها نهاية،

فأسماؤه ما لها نهاية ، وقد جاء في الحديث : «أسألك بأسمائك الحسنى كلها ما علمنا منها وما لم نعلم» الحديث ، فمنها الظاهر ، ومنها الباطن ، وفي الحديث : «أسألكَ بكل اسم هو لك ، سمّيت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي» آمين فهناك أسماء إلٰهية استأثر الله تعالى بعلمها لم تظهر.

وجميع الأسماء الإلٰهية هي داخلة في دائرة هذا الاسم ، ولهذا يقال له الاسم الأعظم ، كما قال ابن عباس : (اسم الله الأعظم هو : الله)[١] ، وكما قال جابر بن يزيد : اسم الله الأعظم هو الله ، ألا ترى أنه في جميع القرآن يبدأ به قبل كل اسم . اهـ[٢] .

٢ ـ وهذا الاسم هو المتبوع ، وجميع الأسماء تابعة له ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ الآية ، فترى أن اسم الخالق والبارئ والمصور كلها تابعة لاسم الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ على طريق الوصف والنعت .

٣ ـ هذا الاسم الجليل ﴿ ٱللَّهُ ﴾ تعلّقت به جميع العوالم بذراتها وبأنواعها قال تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

---

(١) رواه ابن مَردويه وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) رواه ابن أبي شيبة والبخاري في (تاريخه) ، وابن الضريس ، وابن أبي حاتم ، وروى ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن الشعبي أنه قال : اسم الله الأعظم : يا ألله . اهـ .

فجميع العباد يقولون يا ألله ، دعاءً أو سؤالاً ، نداءً أو ذكراً ، أو مناجاة ، ولكن في الحقيقة كلٌّ واحد منهم متعلق باسم خاص ، داخل في دائرة اسم الله الذي هو اسم الجلالة ، وإنما يتبين ذلك الاسم من الحال الذي فيها الداعي ، أو الذاكر ، أو المناجي ، أو السائل ، فمقتضى حال القائل يا ألله؛ هو الذي يدلك على الاسم الخاص الذي تعلّق به ، فالمريض يقول: يا ألله ، والفقير يقول: يا ألله ، وضعيف القوى يقول: يا ألله ، والضّال يقول: يا ألله ، والمظلوم يقول: يا ألله.

فالكل متعلِّقون بهذا الاسم الجليل ، ولكن الذي يجيب كلَّ واحدٍ منهم هو الاسم الذي يقتضيه حاله.

فقول المريض: يا ألله أي: يا شافي.

وقول المحتاج: يا ألله أي: يا كافي.

وقول الضعيف العاجز: يا ألله أي: يا قوي.

وقول المظلوم: يا ألله أي: يا ناصر من لا ناصر له انصرني على من ظلمني.

وقول المبغيِّ عليه والمعتدى عليه: يا ألله أي: يا منتقم.

فيجيبه الاسم الخاصّ كما هو مقتضى حاله ، وذلك الاسم هو داخل في دائرة اسم الجلالة : **الله جلَّ وعلا**.

٤ ـ ومن خصائص اسم الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ أنك إذا أدخلت عليه ياء النداء تبقى الألف ثابتة تقول: يا ألله بألف ثابتة ، ولو دخلت على غيره من الأسماء لحذفت الألف كما هو معلوم في لغة العرب.

٥ ـ ومن خصائص هذا الاسم الجليل ملازمة الألف واللام له ، فهما من ذات الاسم الجليل ، وليسا بزائدين .

٦ ـ ومن خصائص هذا الاسم الجليل أنه قد تحذف ياء النداء من أوله وتعوّض عنها ميم مشددة فيقال : اللهم .

٧ ـ ومن خصائص هذا الاسم الجليل ﴿ ٱللَّهُ ﴾ حيثما تصرفت حروفه دلّك على الله تعالى :

فإذا حذفت منه الألف صار (لله) ، قال تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وإذا حذفت منه الألف واللام الأُولى صار (له) قال تعالى : ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

وإذا حذفت الألف واللامان صار (هو) قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية .

ولهذا الاسم الجليل خصائص وفضائل كثيرة مذكورة في كتب المطولات .

الرحمن : هذا الاسم مما اختص الله تعالى به ، وهو اسم دال على رحمته سبحانه العامة لجميع الكائنات على مختلف أنواعها ، وهذه الرحمة هي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فهذه الرحمة عمّت وشملت كل شيء يقال له شيء ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ فاستوى باسمه الرحمن على العرش المحيط بما هنالك كلّه ، فالعرش وما حواه من العوالم التي لا يعلمها إلا الله تعالى محاط باسم الرحمن ، واستواؤه سبحانه على العرش هو كما جاء عن أئمة السلف الصالح، ومن أشهرهم الإمام

مالك رحمه الله تعالى قال للسائل عن آية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فأطرق الإمام ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب. اهـ.

نعم لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، فاستواؤه ليس مثله شيء، ولا يقتضي التحيّز ولا التجسيم، ولا التمثيل ولا التشبيه، فهو سبحانه كان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان سبحانه وتعالى.

فقوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عمَّ برحمته جميع خلقه من الملأ الأعلى والأدنى، والإنس والجن، والمؤمنين والكفار، فرحمانيته وسعت الكل، فهو يمدُّ الكل بالإيجاد والإمداد، والهواء والماء والغذاء، ويعطيهم جميع ما يتطلبه وجودهم وحياتهم وبقاؤهم...

الرحيم: فهو يدل على الرحمة الخاصة، فإما أن تكون خاصة بطائفة من العباد المرحومين وهم أهل الإيمان، وإما أن يكون خصوصها بتناولها أنواعاً خاصة من الرحمة؛ وإن كانت عامة لجميع العباد.

والمعنى: أنها قد يراد بها خصوص نوع المرحومين بها أو نوع من أنواعها.

فالأول: وهو أن اسم الرحيم هو اسم لله تعالى دال على رحمته الخاصة بمن شاء، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فهو سبحانه يخص من يشاء بما شاء من

أنواع الرحمة اختصاصاً ، وهذه الرحمة الخاصة على أنواع متعددة ، ومراتب مختلفة :

فمنها نعمة الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ .

فمن هذه الرحمة نعمة الإيمان المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

فذكر هناك الفضل والرحمة فقال : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ . ثم ذكر هنا الفضل والنعمة أي : نعمة الإيمان التي هي من تلك الرحمة الخاصة فافهم . .

ومنها نعمة النبوة ، قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ .

ومن هذه الرحمة الخاصة ما أكرم الله تعالى به عباده المؤمنين ، وما يكرم به أولياءه المكرمين ، وأنبياءه المصطفين ، قال تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

وقال تعالى ـ إخباراً عن الراسخين في العلم أنهم يسألونه هذه

الرحمة ـ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

وقال تعالى ـ لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ الآية .

فجميع ذلك من أنواع الرحمة الخاصة .

كما أن الرحمة العامة هي أيضاً على أنواع متعددة .

وأنواع الرحمة العامة والخاصة لا يعلمها إلا الله تعالى ، وبهذا التقسيم المتقدم من أن الرحمة منها عامة ومنها خاصة ، ولكل واحدة مراتب وأنواع نعلم أنه لا تعارض بين قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ حيث عمم ، وبين قوله تعالى : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ حيث خصَّص .

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . فخصّ بعدما عمّ؟

فالجواب: أن المراد بالكتابة التثبيت والتحتيم ، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ والمعنى أوجبها لهم وحتَّمها .

أو المراد بالكتابة الجمع ، أي: فسأجمع أنواع الرحمة العامة بما فيها من الرحمة الخاصة للذين يتقون ـ فإن الكتابة قد تطلق على الجمع ومنه كتيبة الجيش .

أو المراد بقوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ الضمير يعود إلى الخاصة من باب الاستخدام ، وهو : إعادة الضمير على الكلمة وإرادة معنى

آخر ، لكن بينهما ارتباط من وجه: **إما سببية ومُسَبَّبِيَّةٌ** كما في قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم ـ أي: المطر ـ

رعيناه وإن كانوا غضابا

أي: رعينا عشبه وخصبه.

أو عموم وخصوص ونحو ذلك كما هو مفصل في نوع البديع من البلاغة؛ والمعنى: فسأخص وأمنح خاصة الرحمة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ...﴾ إلى آخر الآية.

فمن هذه الرحمة الخاصة تُخرق العادات: وتظهر للأنبياء المعجزات، وللأولياء الكرامات.

قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، فإنه سبحانه وهبه يحيى عليهما السلام على كبر سنه وعقر امرأته.

وقال تعالى في أصحاب الكهف: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ بعد ما دعوا فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

فهي رحمة خاصة لَدُنيّة، تخرق الأسباب العاديّة، ولذلك قال سيدنا زكريا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾.

وأما الثاني: وهي الخاصة بذكر نوع من الرحمات الخاصة، قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وسيأتي بقية الكلام على الفوارق بين الرحمة العامة والخاصة في سورة الفاتحة إن شاء الله تعالى.

وههنا تنبيهات فيها تفهيمات ينبغي للمؤمن اللبيب أن يعرفها:

الأول: اعلم أن اسم الرحمن والرحيم باقترانهما يكونان من جملة الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله تعالى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، كما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره، عن أسماء بنت يزيد، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وقوله تعالى: ﴿الم ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾».

ومن المعلوم أنّ الاسم الأعظم الذي هو أجمع لجميع الأسماء الإلٓهية هو الله اسم الجلالة، والأسماء الإلٓهية كلها تابعة له، ومجموعة فيه، وأما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله تعالى به أجاب، وإذا سئل به أعطى فهو متعدد كما بينتُ ذلك في كتاب (الدعاء) مع الأدلة من الأحاديث النبويّة.

ومن ذلك اسم الرّب، وفي الحديث: «إذا قال العبد: يا ربّ يا ربّ يا ربّ، قال الله تعالى: لبّيك عبدي سل تُعط»[1] وسيأتي الكلام على اسم الربّ.

الثاني: واعلم أن اسم الرحمن إذا اقترن باسم الرحيم دلّ اسم الرحمن على الرحمة العامة، ودلَّ اسم الرحيم على الرحمات الخاصة، وإذا أفرد اسم الرحمن بالذكر شمل وعمّ الرحمات

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

الخاصة أيضاً ، قال تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ إلى تمام السورة.

فبدأ سورة الرحمن باسمه الرحمن ، ثم ذكر ما شمله اسم الرحمن من أنواع النعم وأصناف الامتنان ، فكلما ذكر نوعاً من الرحمة أردفها بذكر النعمة والمنة فيقول سبحانه : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

فذكر نِعَماً ورحمات عمَّتْ جميع الثقلين ، مؤمنهم وكافرهم ، وبرّهم وفاجرهم ، ثم ذكر نعمه الخاصة ، ورحمته الخاصة بالمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ . . ﴾ الآيات .

فهذا كله داخل تحت اسم الرحمَن الذي بدأ به السورة ، فجميع أصناف الامتنان المذكورة في السورة هي مظاهر لاسم الرحمن وآثاره .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ .

فشمل اسم الرحمَن هنا اسم الرحيم أيضاً ، لأن المتقين حُشروا إلى رضوان الله تعالى وجنته ، وهي من الرحمة الخاصة التي قال تعالى فيها : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

فنال المتقون أنواع الرحمات الإلٓهية العامة والخاصة .

الثالث : الحكمة في تخصيص هذين الاسمين في البسملة .

لقد تعرف سبحانه إلى عباده بهذين الاسمين ، فأعلنهما وصفين لاسم جلالته ، الذي بدأ به الأمور كلها فقال سبحانه ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ مخصصاً لذكر صفة

الرحمن والرحيم ، وفي هذا وجوه من الحِكم:

أولاً: ليعرِّف عباده بأن الله تعالى الذي هو ربّهم هو الرحمن الرحيم ، ليحبِّبهم به فيتقربوا إليه حبّاً فيه ، وطمعاً فيما عنده من الرحمات التي لا تحصى أنواعها.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الآية.

فهو سبحانه ربّ العالمين ، ربَّاهم برحمته ، وغذَّاهم بنعمته ، والتربية الكاملة لا تقوم إلا على أساس الرحمة ، ولذلك لما خلق الخلق كتب في كتاب عنده فوق العرش: «إن رحمتي سبقت غضبي» الحديث.

وفي رواية: «كتب على نفسه كتاباً فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي».

وفي رواية: «غلبت» ، وفي رواية: «تغلب» ، وكلها وارد في الصحاح.

فإن رحمته سبقت غضبه ، وغلبت غضبه ، وتغلب غضبه.

فحتم على نفسه سبحانه أن يرحم جميع مخلوقاته ، أعلن ذلك لَمَّا خلق الخلق سبحانه ، فهو أرحم بعباده وسائر مخلوقاته من أنفسهم ، فإن رحمتهم لأنفسهم هي من مظاهر اسم الرحمن ، كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين ـ أي: جزءاً ، وفي رواية مسلم: «ليوم القيامة» ـ وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، ـ أي: فيما بينها ـ حتى ترفع

الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه».

وفي رواية لمسلم: «إن الله تعالى خلق بعد خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة واحدة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة».

ثانياً: إن اسم الرحمن هو محيط بجميع الأكوان، وآثاره مشهودة بالعيان، وثابتة بالبرهان، وهي شاملة للإنسان والحيوان والطيور، وجميع عوالم المُلك والمَلَكوت والدنيا والآخرة.

فخلق الإنسان والجان بالرحمة، قال تعالى في سورة الرحمن التي بيّن سبحانه فيها مظاهر رحمانيته فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ...﴾ الآيات.

ثم ربّاه بالرحمة، فأودعه الرحم، والرحم شجنة من الرحمن[1]، ثم غذاه بالرضاع ثم بالماء والغذاء والهواء، وأحاطه بأنواع من النعم، كل ذلك من آثار اسم الرحمن.

وهكذا الزمان المشتمل عليهم والمكان المحيط بهم، قال

---

(١) كما جاء في (سنن) أبي داود والترمذي وغيرهما، عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم: شجنة من الرحمن ـ أي: مشتبكة بهذا الاسم كاشتباك العروق ـ مَنْ وصلها وصله الله تعالى، ومَنْ قطعها قطعه الله تعالى».

تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

الأمر الثاني: بيان هل هي آية مستقلة أم آية من كل سورة من القرآن الكريم:

ذهب **بعض الأئمة** من السلف الصالح رضي الله عنهم إلى أن البسملة هي من القرآن الكريم، نزلت مستقلة، بمعنى: أنها ليست من سورة معينة، بل هي من القرآن، كما تقول: سورة الإخلاص سورة من القرآن، وُضعت آية البسملة أمام كل سورة، للفصل بين السُّور.

وذهب **بعض الأئمة** إلى أن البسملة هي من سورة الفاتحة خاصة، ولكن وضعت هذه الآية أمام كل سورة للفصل بين السور.

وذهب **الأئمة الكثيرون** إلى أن البسملة هي آية من كل سورة بعدها، فمن قرأ السورة ولم يأت ببسملة فقد قرأ السورة ناقصة، وهذا القول ـ وهو أن البسملة أمام كل سورة، هي آية من السورة التي بعدها ـ هو القول الجامع بين الأقوال، وله أدلة كثيرة وصريحة أذكر بعضاً منها:

روى أبو داود، والإمام أحمد، وابن خزيمة في (صحيحه) والحاكم في (المستدرك) عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُقَطِّع قراءته ـ أي: يقرأ آية آية ـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

وروى البخاري ، وابن أبي شيبة ، والدارقطني ، وغيرهم عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال: (كانت مدّاً ، ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يمدُّ بسم الله ، ويمدُّ الرحمن ، ويمدُّ الرحيم).

وروى الدارقطني ، والبيهقي في (سننه) بسند صحيح ، عن عبد بن خير قال: سئل علي رضي الله عنه عن السبع المثاني ، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ـ أي: سورة الفاتحة.

فقيل له: إنما هي ست آيات ، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ آية ـ أي: من الفاتحة ـ.

وروى الطبراني في (الأوسط) ، وابن مردويه في (تفسيره) والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سبع آيات: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إحداهنَّ ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم ، وهي أم القرآن ، وهي فاتحة الكتاب...».

فالبسملة آية من الفاتحة ، وهي آية من كل سورة بعدها.

والدليل على ذلك أيضاً:

روى أبو داود ، والبزار ، والطبراني ، والحاكم في (مستدركه) والبيهقي في (المعرفة) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يعرف فصل السورة ، وفي رواية: خاتمة السورة حتى ينزل عليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

زاد الطبراني في روايته: فإذا نزلت ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عرف أن السورة ـ أي: السابقة ـ قد ختمت، وابتدئت سورة أخرى.

فقول ابن عباس رضي الله عنهما: حتى ينزل عليه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صريح في أن البسملة كانت تنزل مع نزول كل سورة.

وروى الطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في (الشعب) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا جاء جبريل فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ علم أنها سورة ـ أي: نزلت سورة أخرى غير السورة السابقة في النزول.

فقوله: فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هذا صريح أنها من السورة.

ويؤيد ذلك ما رواه الأئمة الخمسة، عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه ضاحكاً.

فقيل: ما أضحكك يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نزلت عليَّ سورة آنفاً ـ أي: الآن ـ فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾» حتى ختمها.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أتدرون ما الكوثر»؟

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «إنه نهر وعدنيه ربي عزّ وجلّ ، عليه خير كثير ، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء ، فَيُخْتلج العبد» ـ يعني: أن بعض الناس في الموقف يأتون إلى الحوض ليشربوا ، فيؤخذ بهم ويبعدون عنه .

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأقول: ربِّ إنه من أمتي.

فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك».

وهؤلاء هم المرتدون بعد إيمانهم ـ والعياذ بالله تعالى.

وقول أنس رضي الله عنه: أغفى إغفاءة ، يريد أنه صلى الله عليه وآله وسلم اعترته حالة الوحي ، وهي الكيفية التي قال فيها صلى الله عليه وآله وسلم حين سئل: كيف يأتيك الوحي؟

قال: «**أحياناً** يأتيني في مثل صلصلة الجرس[1] ، وهو أشده عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، **وأحياناً** يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. . » الحديث كما في البخاري وغيره.

فإذا جاء الوحي على الكيفية الأولى ـ أي: دون أن يتمثل له الملك رجلاً ـ ففي هذه الحالة يحمرّ وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، ويظل ساكتاً فلا يكلمهم ولا يكلمونه ، لأنه يتلقى

---

(١) وجه التشبيه هو في تتابع الكلام الذي يلقيه عليه جبريل عليه السلام ، فإن جبريل عليه السلام هو ملك لا يتوقف إلقاؤه الكلام على نَفَس حتى ينقطع الكلام بانقطاع النفس ـ وليس وجه التشبيه بصوت الجرس في نغمته ، ولذا قال: «في مثل صلصلة الجرس» ا هـ.

الوحي عن جبريل عليه السلام ، وسيدنا جبريل عليه السلام وقتئذٍ على حقيقته الملكية الجبريلية دون تمثل.

والوحي النبوي له كيفيات متعددة ليس موضع تفصيلها هنا.

ومما يدل على أن البسملة هي آية من السورة بعدها:

أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو يعلى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في (الدلائل) ، وابن عساكر ، عن جابر رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل في ملأ من قريش: قد انتشر علينا أمر محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر ـ أي: حتى يذهب إليه فيكلمه.

فقال عتبة بن ربيعة: علمت من ذلك علماً ، وما يخفى عليّ إنْ كان كذلك.

فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: فيم تشتم آلهتنا ، وتُضلل آباءنا ، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيتَ ، وإن كان بك الباءة زوَّجناك عشرةً ؛ تختار من أيّ بنات قريش ، وإن كان بك الحاجة جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك ـ أي: ذريتك من بعدك ـ وأطال الكلام.

قال جابر: ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ساكت لا يتكلم ـ نعم لأن الوحي ينزل عليه ـ.

فلما فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفَرَغت يا أبا الوليد»؟

قال: نعم.

قال: «فاستمع مني».

قال عتبة: أفعل ـ أي: أسمع ـ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ...﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

فأمسك عتبة على فيه وقال: أناشدك الرحم أن تكفّ عنه.

ثم رجع عتبة إلى قومه، فقال: يا قوم أطيعوني في هذا اليوم، واعصوني بعده، والله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت مثله قط، اتركوا الرجل واعتزلوه، فوالله ما هو بتارك ما هو عليه، وخلّوا بينه وبين سائر العرب، فإن يكن يظهر عليهم يكن شرفه شرفكم، وعزه عزكم ـ أي: تتشرفون بشرفه وتعتزون بعزته ـ وملكه ملككم، وإن يظهروا عليه تكونوا قد كفيتم بغيركم.

فقالوا: صبأت يا أبا الوليد ـ أي: ملت إلى جانب محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأعجبك أمره، وتركت ما عليه قومك من عبادة الأصنام.

فقال: يا قوم والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة، سمعته يقول: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فناشدته الرحم حتى يكف، وقد علمتم أن محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب. اهـ.

وقد أدخلت فيما ذكرته بعض الروايات على بعض لتتم الفائدة.

ومما يدل على أنّ البسملة آية من كل سورة بعدها أنها مكتوبة أمام كل سورة، وقد مُنِعوا أن يكتبوا مع القرآن غيره، حتى إنهم ـ أي: الصحابة رضي الله عنهم ـ كانوا لا يكتبون العلامات الدالة على الأعشار والأخماس ونحو ذلك؛ لئلا يختلط بالقرآن ما ليس بقرآن، فلو لم تكن البسملة آية من كل سورة ما كتبوها أمام كل سورة.

هذا وقد أجمع السلف الأول على أن ما بين الدفتين هو كلام الله تعالى، والبسملة مكتوبة بين كل سورتين بين الدفتين.

وقد ورد في الأحاديث النبوية ما يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان كثيراً ما يجهر بالبسملة في الصلوات الجهرية، وكان يسرّ بها أحياناً، يدل على ذلك ما يلي:

روى الدارقطني والبيهقي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قرأ وهو يؤم الناس افتتح بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

قال أبو هريرة: هي آية من كتاب الله تعالى، اقرؤوا إن شئتم فاتحة الكتاب كاملة، فإنها الآية السابعة.

وروى ابن أبي شيبة، والإمام أحمد، وأبو داود، وابن الأنباري، وابن خزيمة في (صحيحه) وابن سعد في (الطبقات)، والدارقطني، والحاكم وصححه، والخطيب وابن عبد البر كلاهما في (كتاب المسألة) عن أم سلمة رضي الله عنها: (أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ

﴿ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا
ٱلضَّآلِّينَ﴾ قطّعها آية آية) الحديث كما في (الدر المنثور).

وأخرج أبو داود، والترمذي، والدارقطني، والبيهقي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح صلاته بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ـ أي: فكان الصحابة يسمعون ذلك جهراً.

وروى البزار، والدارقطني والبيهقي في (الشعب) من طريق أبي الطفيل قال: سمعت علي بن أبي طالب وعماراً رضي الله عنهما يقولان: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يجهر في الصلوات المفروضة الجهرية بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في فاتحة الكتاب).

وروى الدارقطني، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجهر بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في السورتين جميعاً).

أي: يجهر بالبسملة قبل الفاتحة، وبالبسملة من السورة التي يقرؤها بعد الفاتحة في الصلاة الجهرية.

وأما الدليل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يسرّ بالبسملة أحياناً في الصلوات الجهرية، ففي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وروى مسلم ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير ، والقراءةَ بـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

أي: يفتتح القراءة في الصلاة بسورة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لا بغيرها من السور ـ أي: فما كان يفتتح القراءة في الصلاة بـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ولا بغيرها من السُّور ـ وأما البسملة فيسرّ بها لا أنه يتركها ، وهذا محمول على بعض الأحيان ، بدليل إثبات جهره صلى الله عليه وآله وسلم بها في الأحاديث المتعددة المتقدمة ، التي هي بمجموعها حجة قاطعة في الاستدلال على الجهر بها .

وأما ما جاء في رواية لمسلم: عن أنس رضي الله عنه قال: (صليت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لا يذكرون ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في أول قراءة ولا في آخرها) فهي محمولة على أنهم لا يذكرونها جهراً ، وإنما يذكرونها سرّاً ـ أي: أحياناً ـ وليس المراد أنهم لا يذكرون شيئاً أبداً .

فكما أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يسرّ بدعاء الثناء بعد افتتاحه بالتكبير ، وبالتوجه ، وبالتعوذ ، فكذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يسرّ بالبسملة ، فإن دعاء الثناء والتوجه والتعوذ ثابت عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصلوات ، فلا يجوز أن يفهم من قول أنس رضي الله عنه الوارد في مسلم: لا يذكرون

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ولا غيرها على النفي المطلق؛ بل على نفي الجهر بها.

فقد روى البخاري، عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: كانت مدّاً، ثم قرأ أنس: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يمدّ بسم الله ـ أي: اللام التي قبل هاء الجلالة ـ ويمدّ الرحمن ـ أي: الميم التي قبل النون ـ ويمدّ صلى الله عليه وآله وسلم الرحيم ـ أي: الحاء ـ فهذه الرواية عن أنس تدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يجهر بالبسملة.

وروايته عدم ذكر البسملة محمولة على الإسرار بها، كما كان صلى الله عليه وآله وسلم يُسِرُّ بدعاء التوجه بعد التكبير.

ففي (الصحيحين) والرواية لمسلم، عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام إلى الصلاة كبر ثم قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وأنا من المسلمين»).

وفي رواية لمسلم: «وأنا أول المسلمين» الحديث.

وبه أخذ الإمام الشافعي رضي الله عنه.

وروى أبو داود والترمذي، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا افتتح الصلاة قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك».

وبهذا أخذ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه.

سنيّة افتتاح مهامّ الأمور بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كل أمر ذي بال[1] لا يبدأ فيه بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أقطع[2]...» وقد حسَّنه النووي والسيوطي بعده وغيرهما.

أمّا افتتاح تلاوة القرآن الكريم بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

فقد روى البخاري وغيره، عن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: كان

---

(١) أي: ذي شأن وشرف، قال العلامة المناوي: وفي رواية: «كل كلام» والأمر أعم من الكلام، لأنه قد يكون ـ أي: الأمر ـ فعلاً فلذا آثر روايته. اهـ.
والمعنى كل أمرٍ قولا كان أو فعلاً، له شأن يهتم به شرعاً.
فالمراد بالبال هنا الحال، وقد يطلق البال في اللغة على القلب.

(٢) معنى أقطع: ممحوق من كل خير وبركة.
قال الإمام النووي بعد سياقه هذا الحديث وما قبله وهو حديث ابن ماجه: «كل امرىء ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع».
قال: روينا هذه الألفاظ في الأربعين للرهاوي وهو حديث حسن، وقد روي موصولاً ومرسلاً، ورواية الموصول جيدة الإسناد، وإذا روي الحديث موصولاً ومرسلاً فالحكم للاتصال عند الجمهور.. اهـ فقد حسَّن النووي حديث البسملة.

يُـقَطِّع قراءته آية آية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . . .﴾ الحديث.

ومن ذلك **افتتاح الكتب والرسائل** فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح كتبه ورسائله بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. .

فهذا كتابه صلى الله عليه وآله وسلم إلى هرقل، وفيه كما في (صحيح) البخاري: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام».

وفي رواية لمسلم: «بداعية الإسلام ـ أي: بالكلمةِ الداعية للإسلام، وهي شهادة أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ـ أي: إثم أتباعك ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾».

وروى الخطيب البغدادي، عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنهم، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب».

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح كلامه ويختتمه ببسم الله:

كما جاء في حديث هند بن أبي هالة المذكور في شمائل الترمذي وغيرها، وفيه: كان صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح كلامه

ويختمه باسم الله تعالى . . . الحديث بطوله .

وقد ورد استحباب التسمية في عدة أمور ، ولكن تختلف المقاصد فيها حسب حال الأمر الذي بدأه بالبسملة .

فمن الأمور ذات البال التي تسن فيها التسمية :

عند الوضوء ، وعند دخول المسجد؛ وعند الخروج من المنزل والدخول فيه، وعند ركوب الدابة، وإغلاق الباب وغير ذلك، وعند تناول الطعام والشراب ، ولباس الثياب ، والمقصود من ذلك تعظيم الله تعالى والتبرُّك باسمه تعالى، وليحصل الخير والنفع بذلك على وجه التمام والدوام ، والاعتراف له سبحانه بالفضل والنعمة .

وقد يقصد به التعوذ ـ أي: وقد يقصد بالبدء بالبسملة التعوذ ـ من شر الإنس والجن ، والتحصن ، وإبعاد الشياطين ، والتحرز من شرورهم وفسادهم .

وقد يراد به الحفظ للشيء ، يفهم ذلك من المواضع التي يُطلب فيها البسملة كما سيبيَّن لك من الأحاديث النبوية الآتية :

وأما التسمية على الذبيحة فهي فرض لقوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ الآية .

وتفصيل أقوال أئمة الفقه في ذلك تجده في كتب الفقه مفصلاً .

أما البسملة عند الوضوء : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا صلاة لمن لا وضوء

له ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله تعالى عليه»[1] وقد جاء في رواية الترمذي: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه».

وأما التسمية عند دخول المسجد: روى الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما ، عن السيدة الكبرى السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام والرضوان قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل المسجد يقول: «بسم الله ، والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك».

وإذا خرج من المسجد قال: «بسم الله ، والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك».

ثم يأتي داخل المسجد بالتعوذ: روى أبو داود ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم» وقال: «من قال ذلك : حُفظ منه ـ أي : من الشيطان ـ سائر اليوم».

التسمية عند الخروج من المنزل: عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج من بيته قال: «بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنا نعوذ بك من أن نزلَّ

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، ثم قال: وقد ذهب الحسن ـ البصري ـ وإسحاق بن راهويه وأهل الظاهر إلى وجوب التسمية في الوضوء ، حتى إنّه إذا تعمد تركها أعاد الوضوء ، قال: وهو رواية عن الإمام أحمد. إلخ.

أو نضلَّ ، أو نَظلم أو نُظلم ، أو نَجهل أو يُجهل علينا»[1] .

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال إذا خرج من بيته: بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له ـ أي: يقول له الملك ـ: حسبك هُديت وكُفيت ووُقيت ، وتنحّى عنه الشيطان»[2] .

التسمية عند دخول المنزل: روى أبو داود ، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا ولج ـ أي: دخل ـ الرجل إلى بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير الْمَوْلَج وخير المخرج ، بسم الله ولجنا ، وبسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكّلنا ، ثم ليُسلِّم ـ الرجل ـ على أهله» .

التسمية إذا دخل السوق: روى الطبراني والحاكم وغيرهما عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل السوق قال: «بسم الله ، اللهم إني أسألك من خير هذه السوق وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، اللهم إني أعوذ بك أن أُصيب فيها ـ أي: أن أعمل فيها ـ يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة» .

التسمية على الطعام والشراب: عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأكل طعامه في ستة من أصحابه ، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أما إنّه لو سمّى

---

(١) رواه أصحاب (السنن) كما في (جامع الأصول) .

(٢) رواه أبو داود والترمذي .

ـ أي: لو أن الأعرابي قال: بسم الله ـ لكفتكم»[1].

وفي (المسند) أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قُرِّب إليه طعامه قال: «بسم الله»، فإذا فرغ قال: «اللهم إنك أطعمتَ وسقيتَ، وأغنيتَ وأقنيتَ، وهديتَ واجتبيتَ، فلك الحمد على ما أعطيتَ».

وعن جابر رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله، وعند طعامه، قال الشيطان: ـ أي: لأتباعه الشياطين ـ لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال الشيطان: أدركتم المبيت والعشاء»[2].

التسمية عند الركوب: روى الإمام أحمد في (مسنده) عن علي بن ربيعة قال: رأيت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه أُتي بدابة فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله، و﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثم حمد الله تعالى ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي ـ ثم ضحك.

فقلت له: ممّ ضحكتَ يا أمير المؤمنين؟

---

(١) قال المنذري: رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، وابن ماجه، وابن حبان في (صحيحه)، وزاد: قال ﷺ: «فإذا أكل أحدكم طعامه فليذكر اسم الله عليه، فإنْ نسي في أوله؛ فليقل: بسم الله أوله وآخره». وقد روى أبو داود وابن ماجه هذه الزيادة في حديث مستقل.

(٢) رواه مسلم وأصحاب السنن.

فقال علي رضي الله عنه: رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعل مثل ما فعلتُ ثم ضحك، فقلت: ممّ ضحكتَ يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يعجب[1] الربّ تبارك وتعالى من عبده إذا قال: رب اغفر لي، ويقول ـ سبحانه ـ: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري»[2].

التسمية عند إرادة النوم: عن أبي الأزهر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أخذ مضجعه من الليل قال: «بسم الله وضعت جنبي»، وفي رواية: «وبك أرفعه، اللهم اغفر لي ذنبي، واخسأ شيطاني، وفُكّ رهاني، وثَقِّلْ ميزاني، واجعلني في النَّدِيّ الأعلى»[3].

وعن البراء رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده، ثم يقول: «باسمك اللهم أحيا وباسمك اللهم أموت».

وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[4].

واليد التي يضعها تحت خده هي اليمنى، كما جاء في حديث

---

(١) ومعنى يعجب الرب تبارك وتعالى: يَعظم شأن عبده عنده إذا قال: ربِّ اغفر لي، وهو يعلم أنه لا يغفر الذنوب إلا الله تعالى.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث أبي الأحوص. اهـ.

(٣) رواه أبو داود والحاكم.

(٤) عزاه في (الجامع الصغير) إلى (الصحيحين) و(المسند).

البراء رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أخذ مضجعه جعل يده اليمنى تحت خده الأيمن وقال: «ربّ قني عذابك يوم تبعث عبادك»[1].

التسمية إذا أراد الرجل أن يأتي أهله: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جَنِّبنا الشيطانَ، وجَنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إنْ قُضِي بينهما ولد من ذلك لم يضرَّه الشيطان أبداً»[2].

أي: لأنه سمى عليه، أي: ذكر اسم الله تعالى عليه، وكل ذلك قبل التكشف ـ أي: حال الستر ـ.

فحافظ أيها المسلم على ذلك، فإنه حرز لك، ولزوجتك، ولولدك من الشيطان.

التسمية عند إغلاق الأبواب وإطفاء المصباح ونحو ذلك: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا استجنح الليل»، وفي رواية: «إذا كان جُنح[3] الليل فكفّوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ، فإذا ذهب ساعة من الليل فخلّوهم[4]، وأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله، فإن الشيطان

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه الشيخان والإمام أحمد.
(٣) أي: أقبل الليل بظلامه، فإنّ الشياطين والأرواح الخبيثة تنتشر، فتفسد وتضر، فربما تؤذي الأولاد في تلك الساعة.
(٤) بحاء مهملة مضمومة، وفي رواية: بخاء معجمة مفتوحة أي: من =

لا يفتح باباً مغلقاً ، ـ أي : إذا ذُكر اسم الله عليه ـ وأوكئوا قِرَابكم واذكروا اسم الله ، وخمِّروا آنيتكم واذكروا اسم الله ـ ولو أن تعرضوا عليه شيئاً ، وأطفئوا مصابيحكم»[١] .

فاعتبر أيها العاقل في هذا الحديث الشريف الجامع لأنواع من الإرشادات ، والآداب الجامعة لكل خير ، وكلها مرتبطة ببسم الله ، في كل فعل وحركة وسكون ، بحيث تجعلك في سلامة من آفات الدارين ، وفساد أمر الدين والدنيا ، فقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم بإغلاق الأبواب مع ذكر اسم الله تعالى ، وهذا يشمل كل باب يغلق ، سواء باب المنزل ، أو باب صندوق الأمتعة ، فإن الأمتعة من الألبسة ونحوها هي معرضة لتسلط الشياطين عليها ، كما هي معرضة لدخول الهوام فيها ، فسمّ الله تعالى إذا وضعتها إن لم تكن في موضع له باب ، وإن وضعتها في موضع له باب فسمّ الله تعالى عند إغلاق الباب ، فإن اسم الله تعالى هو السور العظيم ، والحجاب المنيع ؛ مانع لتدخل الشياطين .

روى أبو الشيخ في (العظمة) عن صفوان بن سليم قال : الجنُّ يستمتعون بمتاع الإنس وثيابهم ، فمن أخذ منكم ثوباً أو وضعه فليقل بسم الله فإن اسم الله تعالى مانع .

وأمر صلى الله عليه وآله وسلم بالقُرَب أن توكأ ـ أي : تسد

= التخلية ، والمعنى : فلا تمنعوهم من الخروج والدخول .

(١) رواه الشيخان والإمام أحمد والبزار وغيرهم ، ومعنى : «خمِّروا آنيتكم» أي : اجعلوا عليها غِطاءً بأيِّ شيء تيسَّر ، فإن البسملة تجعله قوياً منيعاً .

أفواهها بما يُسد به فم القربة ـ مع اسم الله تعالى حتى لا تدخل فيه الهوام ، ولا تفسده الشياطين .

وأمر بتخمير الأواني ـ أي : بتغطيتها ولو بغطاء خفيف ـ فينبغي تغطية أواني الطعام والشراب مع ذكر اسم الله تعالى ، فإن ذِكْر اسمِ الله تعالى هو الذي يحفظها لا الغطاء ، فسمّ الله تعالى لحفظها من الهوام الظاهرة ، والشياطين الخفية .

وإذا وضعت أواني الطعام والشراب في محفظة لها كالمبرِّدات في زماننا فسمّ الله تعالى ؛ وأغلق الباب يكفيك عن تغطيتها .

وأمر بإطفاء المصابيح عند النوم ، وجاء في تعليل الأمر بإطفاء المصابيح التي كانت تضيء بسبب الفتيلة المستمِدَّة من الزيت ، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم بإطفاء المصباح مخافة أن تأتي الفُويسقة بتحريك من الشياطين فتجر الفتيلة فتحرق البيت .

وقد نص العلماء على أن الأمر بإطفاء تلك المصابيح هو للإرشاد ، مخافة الأذى ووقوع الضرر ، ولكن إذا لم يكن هناك ضرر أو مخافة الأذى منها فلا مانع من ترك إطفاء المصباح عند النوم حسب الحاجة ، وكل ذلك من باب شفقته صلى الله عليه وآله وسلم على أمته ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم أشفق على أمته من الوالدة على ولدها ، ولم يَدَعْ صلى الله عليه وآله وسلم شفقة دينية أو دنيوية إلا وقد أرشد أمته إليها؛ ودلّهم عليها ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

وفي هذا الحديث الشريف ما يدلك على أن تعاطي الأسباب الظاهرة هو أمر مشروع لا بُـدَّ منه ، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم

بإغلاق الأبواب ، وإيكاء السقاء ، وتغطية الأواني ـ وغير ذلك كما تقدم ولكن بيّن أن ذلك وحده لا يكفي ، بل لا بد من ذكر اسم الله تعالى ، فإن الأسباب ليس لها تأثير في الحفظ والوقاية ـ من ذاتها ـ وإنما المؤثِّر بالذات والفعّال هو الله تعالى وحده ، فإن الأسباب هو الذي نصبها ـ ولكن لم يجعل لها تأثيراً من ذاتها ـ فإن شاء أعملها وجعل لها التأثير ، وإن شاء أهملها ، فالأسباب كآلة عمل إن أمدتها قوة كهرباء أو نحوها تحركت؛ وإلا فهي عاطلة عن الحركة.

والأسباب كالأجسام ، فإنْ جعل الله تعالى فيها روحاً عملت وتحركت ، وإلا فلا حراك لها.

فليس لسببٍ تأثير ذاتي ، فقد يحرق سبحانه بالنار ، وقد يجعلها برداً وسلاماً ـ وهي نار ـ كما جعلها على سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

وصلابة الحديد ليست من ذاته بل بقوة من الله تعالى ، وقد يجعله ليّناً وهو حديد ، قال تعالى في سيدنا داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

والدواء سبب ولكن الذي يشفي به هو الله تعالى.

والماء سبب ولكن الذي يروي به هو الله تعالى وهكذا... فلا بد من الأسباب ، ولكن ليس التأثير من الأسباب ، بل من الْمُسبب سبحانه وتعالى لأنه هو الذي خلقها ، وقد أمر الله تعالى بالأخذ بالأسباب ، وقد تعاطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأسباب ، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

فانظر في قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ أي: بسبب ما أعددتم، ولكن الله تعالى هو الذي يجعل بذلك الرهبة والرعب.

قال تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الآية.

وضرب الأعناق لا بد له من سيف، والسيف لا بد له من إعداد وقوة يد تضرب به.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ الآية، صعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم المنبر فقرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» كما ورد ذلك في مسلم و(مسند) أحمد وغيرهما.

فتفكر أيها العاقل في هذا الحديث النبوي الذي فيه معجزة كبرى من معجزات إخباراته المغيبة صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك أن القوة في كل عصر وفي كل الحروب هي الرمي؛ وإن كانت الآلات والمخترعات التي يرمى بها تختلف حسب اختراع أهل العصر، فكانت قوة الرمي بالسهام، والرمي بالمنجنيق، ثم بعد ذلك الرمي بالرصاص وأشباهه، والقنابل وأمثالها، ثم الصواريخ التي يرمى بها من أبعاد ومسافات، وجميع ذلك داخل تحت قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا إن القوة الرمي».

فصلى الله العظيم عليك يا سيدي يا رسول الله، ما تركت أمراً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرت عنه، وعرفتنا به، وهذه كلها معجزات محققة الوقوع، شاهدة بصدق نبوته صلى الله عليه وآله

وسلم ورسالته إلى جميع العالمين إلى يوم الدين.

هذا وقد ذكرت لك جملة موجزة من المواضع التي يتأكد عليك فيها الإتيان بالبسملة، وهناك عدة مواضع عديدة هي معلومة، وربما تمر على بعضها في هذا الكتاب.

ومن هذه الأحاديث التي تقدمت في البسملة تعلم فضلها وخصائصها، وقوة آثارها في البركة، واستفتاح أبواب الخير واستنزال رحمة الله تعالى، وافتتاح أبواب الفضل الإلّهي، وتعلم ما فيها من قوة التعوذ والتحصّن من الشياطين، وما فيها من قوة الحفظ من المضار والهوام، وكل ما يتأتىٰ منه الفساد والشرور، وتعلم ما فيها من قوة التجاء العبد إلى الله تعالى: مولاه ونصيره وحفيظه ووكيله، وما فيها من اعتراف العبد بفقره إلى الله تعالى: في جميع أموره، وتعلم أسماء الله تعالى، وقوة تأثيرها، وسريان آثارها في العوالم إلى غير ذلك، وبسم الله أولاً وآخراً، والحمد لله على ذلك.

التسمية في كل صباح ومساء ثلاثاً: روى أبو داود، وابن حبان وغيرهما، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال حين يمسي: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ـ ثلاث مرات؛ لم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات؛ لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسي».

التسمية لتسكين الآلام والأوجاع: روى الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم

يُعلمهم من الحمّى والأوجاع كلِّها أن يقول: «بسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم، من كل عرق نعّار ومن شرّ حر النار» والعرق النعّار هو الذي ازدادت حركته أو حرارته.

وعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه اشتكى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعاً يجده في جسده منذ أسلم.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «ضع يدك على الذي تألّم من جسدك وقل: بسم الله ـ ثلاث مرات، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته، من شرّ ما أجد ـ أي: وجعه ـ وأحاذر» ـ أي: أخاف من عاقبة هذا الوجع ـ.

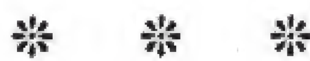
قال عثمان: ففعلت ذلك مراراً؛ فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر أهلي وغيرهم بذلك.

وفي رواية: «أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» رواه مسلم، وأبو داود والترمذي وغيرهم.

وروى مسلم، والترمذي، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: أتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال جبريل عليه السلام: «يا محمد اشتكيت» ـ أي: من وجع ـ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم».

فقال جبريل عليه السلام: «بسم الله أرقيك، من كل داء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك».



التحذير الشديد من إلقاء اسم الله تعالى ، أو آية من كتابه العزيز ، أو حديث رسوله ﷺ على الأرض ، أو عدم تعظيمها :

أخرج أبو داود في (مراسيله) عن عمر بن عبد العزيز ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرّ على كتاب في الأرض فقال لفتى معه : «ما في هذا»؟

فقال الفتى : فيه بسم الله .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لعن الله تعالى من فعل هذا ، لا تضعوا بسم الله إلا في موضعه» .

فعليك يا أخي بتعظيم أسماء الله تعالى وآياته ، وتعظيم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأسمائه ، فإن تعظيم ذلك هو من تقوى القلوب ، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ والشعائر جمع شعيرة .

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى : وهي ـ أي : شعائر الله تعالى ـ كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم به ، ومنه شعار القوم في الحرب ـ أي : علامتهم التي يتعارفون بها ـ فشعائر الله تعالىٰ هي أعلام دينه لا سيما المناسك . اهـ .

قال عبد الله : فشعائر الله تعالى هي : معالم دينه ، ومواضع عباداته ، فيدخل فيها الكعبة المعظمة ، وجميع مواضع مناسك الحج : كعرفة ، والمشعر الحرام ، والمزدلفة ، وجميع بيوت الله تعالى وهي : المساجد ، ويشمل ذلك أيضاً الكتب الشرعية والدينية ، وحملة الشريعة ، وعلماء الدين ، وحملة القرآن

الكريم ، فقد استدل الإمام النووي رحمه الله تعالى بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ استدل بها على وجوب إكرام أهل القرآن الكريم ، وتعظيم علماء الدين ، لأنهم حملة دين الله تعالى.

ونقل الإمام النووي عن الإمامين الكبيرين أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما أنهما قالا: إن لم يكن العلماء أولياء الله تعالى فليس لله تعالى وليٌّ.

كما نقل عن الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى أنه قال: اعلم يا أخي وفقنا الله تعالى وإيَّاك لمرضاته ، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته ، أنّ لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله تعالى في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، وأنّ مَنْ أطلق لسانه في العلماء بالثلب ـ الطعن والاحتقار ـ ابتلاه الله تعالى قبل موته ـ جسماً ـ بموت القلب ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . اهـ.

فإذا كان تعظيم شعائر الله تعالى من تقوى القلوب ، فإن تعظيم أسمائه سبحانه وآياته ، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ذلك من أعظم تقوى القلوب ، ومن المعلوم أنَّ تقوى القلوب إذا تحقق بها المسلم حملته على تقوى القوالب ـ أي: الجسم وجوارحه ـ كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا» ويشير إلى صدره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

فافهم واعقل ، ولا تجهل ، ولا تغفل عن ذلك ، فالتقوى

ليست مجرد كلام ودعوى ، بل هي ما صدر عن قلب فيه تعظيم ما أمر الله تعالى بتعظيمه ، وتكريم ما أمر الله بتكريمه.

فالله تعالى يكرم ويعظم مَنْ عَظَّم ذلك ، ويهين من استهان بذلك ويعذبه:

روى البيهقي في (الشعب) بإسناده عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرم وجهه أنه قال: تنوّق[1] رجل في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فغفر الله تعالى له.

ثم قال البيهقي: هذا موقوف ، وقد أورده الحافظ السيوطي مرفوعاً ، وعلى كل حال فالموقوف في مثل هذا له حكم المرفوع ، لأنه لا مجال للرأي في ذلك.

فهذا رجل كتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فجوّدها وحسنها وتأنّق بها تكريماً وتعظيماً فغفر الله تعالى له.

وأخرج أبو نعيم في (تاريخ أصبهان) وابن أشته في (المصاحف) بسند ضعيف[2] عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من كتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مجوّدة تعظيماً لله تعالى غفر الله له».

وروى البيهقي في (الشعب) عن أبي عبد الرحمن السلمي في ذكر منصور بن عمار أنه أوتي الحكمة ، وأنّ سبب ذلك أنّه وجد

---

(١) الشيء الأنيق: هو الشيء الحسن الجميل ، وتأنق الرجل في الأمر أي: عمله بنيقة مثل تنوّق ـ أي: حسّنه وجمّله اهـ ملخصاً من (النهاية) لابن الأثير مادة تنوق ، وكما في (مختار الصحاح) مادة أنق.

(٢) ومن المعلوم عند المحدثين أن الضعيف يعمل به في الفضائل.

رقعةً صغيرة في الطريق مكتوباً عليها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فأخذها فلم يجد لها موضعاً ـ محترماً ـ فابتلعها، فأري في المنام قائلاً يقول له: قد فتح الله عليك باب الحكمة باحترامك لتلك الرقعة ـ فكان بعد ذلك يتكلم بالحكمة. اهـ.

وقد ذكر الإمام القشيري رحمه الله تعالى عن بشر الحافي رحمه الله تعالى أنه أصاب في الطريق ورقة مكتوباً فيها اسم الله عز وجل، وقد وطئتها الأقدام، فأخذها، واشترى بدراهم كانت معه غالية ـ أي: طيباً جيّداً ـ فطيب بها الورقة، ثم جعلها في شق جدار عال حصين، فرأى في تلك الليلة وهو نائم كأن قائلاً يقول له: يا بشر طيَّبتَ اسمي لأطيبنَّك في الدنيا والآخرة.

ويروى أن هذه الرؤية كانت سبب إنابته بكليته إلى مولاه سبحانه.

وقد جاء مثل ذلك في (وفيات الأعيان) وغيره من كتب التاريخ والتراجم، وقد أوردها الحافظ البيهقي في (شعب الإيمان) بإسناده، وأنه ـ أي: بشر الحافي ـ وجد قرطاساً فيه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فَعَظُمَ ذلك عليه، ورفع طرفه إلى السماء، وقال: سيدي اسمك ها هنا ملقى، فرفعه من الأرض وأزال عنه التراب، وأتى عطاراً فاشترى بدرهم غاليةً ـ لم يكن معه سواه ـ ولطخ به القرطاس، ثم أدخله في شق حائط مرتفع، وانصرف إلى زجّاج كان يجالسه.

فقال له الزجاج: والله يا أخي لقد رأيت لك في هذه الليلة رؤيا

ما رأيت أحسن منها ، ولستُ أقولها حتى تحدثني ما فعلتَ في هذه الأيام فيما بينك وبين الله تعالى .

فقال بشر: ما فعلتُ شيئاً أعلمه ، غير أني فعلت كذا ـ وذكر له ذلك .

فقال الزجاج : رأيت كأن قائلاً يقول لي في النوم : قل لبشر : رفع اسماً لنا من الأرض إجلالاً إذ يُداس ، لننوِّهنَّ ـ أي : لنرفعنَّ ـ باسمك في الدنيا والآخرة. ا هـ.

قال عبد الله : والظاهر أن بِشْراً رأى تلك الرؤيا في المنام ، وأيضاً رُئيت له ، لأنها بشرى من الله تعالى ، وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ الآية ، أن البشرى من الله تعالى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له .

فإياك يا أخي المسلم أن تُعرِّض أسماء الله تعالى ، أو أسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإهانة ، أو الوضع على الأرض ، فلا يجوز كتابة ذلك على أوراق تغلف بها الأمتعة ، أو تصرّفيها الأمتعة ، ولا على السلّة ولا الكيس المصنوعة لحمل الأمتعة ووضعها في داخلها ، كأن تكتب عليه اسم عبد الرحمن ، أو عبد القادر ، أو عبد الكريم ونحو ذلك ، أو اسم محمد أو أحمد ونحوهما ـ تبتغي من ذلك الدعاية لترويج بضاعتك ، لتجرَّ من وراء ذلك كثرة المال ، وأنت تعلم وترى أين مصير تلك الأوراق أو السلّة ، فإن ذلك لا يجوز لوجوه:

أولاً ـ إن غلاف الصّر أو الأوراق التي تصر فيها الأمتعة ، وإنَّ

كيس الأمتعة هي في ذاتها ليس مصنوعة للاحترام والتكريم ، بل هي مصنوعة لحمل الأمتعة المختلفة ، وتوضع هنا وهناك كما هو معروف ، فكيف تكتب عليها أسماء معظمة! على أوراق وسلة مصنوعة للامتهان.

ثانياً ـ أنت تعلم أنها حين تفرَّغ من الأمتعة أين توضع ، فإنها غالباً توضع على الأرض ، أو في أماكن غير محترمة ، ومعرضة للامتهان ، وأن تداس بالأقدام.

ثالثاً ـ أنت تعلم أين مصير تلك الأوراق أو السلة ، وأنها سوف توضع مع الأوساخ والكناسة ، وما أكثر ذلك بين الأوساخ.

فإن قلت: إن الإثم على الذي يضعها في تلك المواضع.

فالجواب: أنك آثم أيضاً ، لأنك المتسبب في ذلك.

وإن زعمت أنك لا تعرف حكم الشرع في ذلك.

فالجواب: أن جهلك بحكم الشرع في ذلك ليس عذراً لك عند الله تعالى ، وقد نص العلماء على أن الجهل بأحكام الشريعة في أمور يتعاطاها الإنسان وهو في بلاد الإسلام ليس بعذر له عند الله تعالى ، لأنه يجب عليه أن يسأل أهل العلم بذلك.

فإن كنتَ لا تدري فتلك مصيبة
وإن كنتَ تدري فالمصيبة أعظم

وحسبنا الله ونعم الوكيل.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة الكتاب:

افتتح بها كتابة الكتاب ـ أي: المصحف ـ بأمره صلى الله عليه وآله وسلم، لأنها أول ما نزل بعد خمس من أول سورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ كما في حديث عائشة رضي الله عنها، ثم أول ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ كما في حديث جابر رضي الله عنه، ثم الفاتحة الثالثة أو الرابعة نزولاً في مكة، ثم في المدينة.

وتسمى **سورة الشفاء**، **والرقية**، كما في حديث أبي سعيد، **وأم الكتاب**، **وأم القرآن**، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ووجه تسميتها بأم القرآن لأن الأم هي أصل الشيء ومرجعه، ومنه أم القرى مكة.

وتسمى **سورة الصلاة** لحديث: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين...» رواه مسلم وسيأتي تمامه قريباً.

وتسمى **السبع المثاني**: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾.

والكلام على وجه تسميتها بالسبع المثاني سيأتي مفصلاً آخر الكتاب إن شاء الله تعالى، في مناسبة الكلام على فضائل سورة الفاتحة.

وتسمى **سورة المسألة والدعاء** لحديث: «أبشر - أي يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - بنورين أُوتيتَهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منهما إلا أُوتيتَه»(١) ففيهما الدعاء، وتعليم الدعاء، والمعلم هو الله تعالى - وسيأتي الحديث بنصه إن شاء الله تعالى.

وتسمى **سورة الحمد** لأن فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لما ورد في الحديث الذي رواه مسلم وغيره: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، - وفي رواية: «قسمين» - فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال الله تعالى: حمدني عبدي.

فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي.

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

قال الله تعالى: مجّدني عبدي.

فإذا قال: ﴿نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

* * *

---

(١) رواه مسلم والترمذي.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه متعددة:

أولاً: افتتحها الله تعالى بالحمد ، والكلام على ذلك فيه عدة من الحكم: **معنى الحمد ، وشمول الحمد هنا ، وأنه مستحق لله تعالى بالذات؛ ووجه استحقاقه ذلك لأنه هو الله تعالى ، ولأنه رب العالمين، وبيان فضل مقام الحمد ، وبيان مقام أحمد الحامدين صلى الله عليه وآله وسلم .**

معنى الحمد هو: الثناء على المحمود بذكر محامده وكمالاته القائمة بذاته ، أو محامده الفعلية الصادرة عنه على وجه الإجلال والتعظيم ، والمراد بالحمد هنا جنسه ، فيشمل حمد الله تعالى لنفسه ، وحمد كل حامد من مخلوقاته ، فإن ذلك كله هو حق لله تعالى ، فيشمل محامده الأزلية الأبدية ، فإنه سبحانه يحمد نفسه ويثني على نفسه ، ويمدح نفسه ، وثناؤه على نفسه هو كما أثنى على نفسه.

وحق له أن يحمد نفسه ، لأن كمالاته ذاتية له؛ ليست من غيره ، وهي غير متناهية ، وهي مطلقة غير مقيدة ، ولذلك حُق له أن يحمد نفسه ، وأن يمدح نفسه سبحانه وتعالى ، كما جاء في (الصحيحين) و(المسند) وغيره ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا أحد أَغْيَر من الله ؛ ولذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه

المدح من الله ولذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ؛ من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل».

والمعنى: أن الله تعالى أقام الحجة على العباد بإنزال الكتب الإلهية ، وإرسال الرسل ، فلا عذر لمن يخالف أوامر الله تعالى بعد ذلك ، لأن عذره غير صحيح.

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

أما غيره سبحانه؛ فلا يجوز أن يحمد نفسه ، ولا أن يثني على نفسه بما عنده من الكمالات ، لأنها ليست من نفسه ، بل يجب عليه أن يُحدث بنعمة ربه عليه بتلك الكمالات ، وأن يحمد الله تعالى الذي تفضل عليه بذلك.

وإنما حق لله تعالى الحمد كله ، وأوجب ذلك على عباده ، لأنه هو الله تعالى ، المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقصان ، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: لأنه هو الله تعالى ، فهو يُحمد لذاته ، ويُحمد لنواله وإفضاله ، وإكرامه ونعمه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والمعنى: أنه يُحمد لأنه رب العالمين ، أي: خالقهم ومربّيهم ، والمنعم عليهم ، والمتفضل عليهم بأنواع النعم والفضل ، والنعم التي لا تُحصى؛ الظاهرة والباطنة ، والنفسية والآفاقية ، والخاصّة والعامة ، والماضية والآتية.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي: كثير الظلم لنفسه ، بارتكاب الذنوب والخطايا ،

وكفره نعم الله تعالى عليه؛ إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ويشكرون الله تعالى على نعمه ، ويحمدونه على فضله وكرمه ، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ .

هذا وإنّ أعظم نعم الله تعالى نعمة القرآن ، ونزوله على سيد ولد عدنان صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ .

فالله تعالى الرحمن ، علم القرآن أولاً لسيد الأكوان صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمره أن يُعلمه لعباده ، فلذلك حمد نفسه سبحانه على إنزاله الكتاب ، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية ، وجيء هنا بكلمة الكتاب ، فإنه من الكتب وهو الجمع ، باعتبار أنه الكتاب الجامع لجميع ما فيه مصالح العباد وسعادتهم ، ولذلك افتتح سبحانه فاتحة كتابه بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، فإن تمام تربيتهم هو بإنزال هذا القرآن ، المتضمن للتنظيمات الإلّهية ، والإرشادات الربانية ، والتعاليم المبيّنة لجميع الحقوق الاجتماعية ، والفردية ، والأدبية ، والمالية.

وهو الكتاب الجامع والكفيل لمصالح العباد وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لأنه أنزله الله تعالى خالق العالمين ، فهو العليم الخبير بما فيه صلاح مخلوقاته ونجاحهم.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

وقال تعالى ـ ممتناً على عباده ـ : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

فقد نزله الرحمن الرحيم ليرحم العباد والبلاد ، ويسعدهم في الدنيا ؛ والآخرة يوم المعاد.

كما بين سبحانه أنه أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

والظلمات أنواع: ظلمة الكفر بأنواعه ، وظلمة الجهل ـ والجهل نوعان : جهل علمي وجهل عملي ، وكل منهما يتنوع إلى أفراد متعددة ـ وظلمة الظلم وهو نوعان: ظلم الإنسان لنفسه ، وظلم الإنسان لغيره: من إنسان وحيوان ودابة وطائر إلى غير ذلك ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات».

فجاء القرآن الكريم يُخرج الناس من تلك الظلمات ، من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم والمعرفة ، ومن ظلمة الظلم إلى نور الحق والعدل.

وإنما وصف الكفر والجهل والظلم بأنه ظلمات ، لأن شأن الظلمة أن تجعل صاحبها الماشي فيها تجعله في حيرة وشك يتخبط ، وربما وقع في مكان سحيق ، وهكذا الكفر فإن صاحبه ليس على دليل قاطع ، ولا برهان ساطع ، وهكذا الجاهل يتخبط في جهله أو جهالته بغير علم ، ولا يدري عاقبة ما يفعله ، وهكذا الظلم فإنه ثورة نفس وحشية شرسة ، فالظالم والحيوان الوحشي المفترس هما سواء...

ولما كانت محامده سبحانه وكمالاته لا نهاية لها ، كان حمد

كل حامد قاصراً عن إحصاء الثناء عليه سبحانه ، وعن الإحاطة بمحامده ، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة ، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدمه ، وهو ساجد يقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(١) .

وإن أحمد الحامدين لرب العالمين من الأولين والآخرين هو سيدنا أحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي ملأ العوالم كلها بمحامد الله تعالى ، ولم يبق لغيره مكان ذرة ، كما دلَّ عليه حديث: «وملءَ ما شئت من شيء بعد» ، وكما دلَّ عليه حديث: «فأحمده بمحامد لا أعلمها الآن» ، وقال: «فيفتح الله تعالى عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتح على أحد قبلي»(٢) فتأمل ذلك تعلم يقيناً أنه لا أحد يحصي ثناءً عليه ، ولا أحد يحيط بحمده ، فإنّ محامده سبحانه على حسب صفات كمالاته ، وكمالاته لا حدَّ لها ولا انتهاء ، فإن الله تعالى قد فتح على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد ، وسيفتح عليه يوم القيامة من محامده وحسن الثناء عليه محامد لا يعلمها الآن؛ وهكذا إلى ما لا نهاية.

ولذلك أُعطي مقام لواء الحمد الذي تحته جميع الحامدين من

---

(١) رواه أبو داود وغيره.

(٢) رواه الترمذي وغيره.

النبيين والمرسلين وأممهم ، ولذلك سمّاه الله تعالى أحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا من باب التسمية العلمية الملازمة للوصفية ، فهو ليس دالاً على الذات فحسب؛ بل على الصفات.

قال تعالى: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ صلى الله عليه وآله وسلم.

وأمته المتبعون له سمّاهم: الحمّادين؛ كما ورد أن أمته صلى الله عليه وآله وسلم الحمَّادون ، فهم في أعلى مقام الحامدين الذين امتن الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾ في السراء والضراء.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتاه الأمر يَسُرُّه قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» ، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «الحمد لله على كل حال» رواه الحاكم ، وابن السني ، عن عائشة رضي الله عنها ، وفي رواية: «رب أعوذ بك من حال أهل النار».

وهذا مقام له فضله.

كما ورد: إن أول ما يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى في السراء والضراء.

والحمد هو رأس الشكر ، كما جاء في الحديث ، عن ابن عَمْرو رضي الله عنهما مرفوعاً: «الحمدُ رأس الشكر ، ما شكر الله تعالى عبدٌ لم يحمده» رواه البيهقي وغيره ، وقد رمز الحافظ السيوطي إلى حسنه.

وفي حديث الطبراني ، عن الأسود بن سريع مرفوعاً: «إن الله

تعالى يحب أن يُحمد» ، فالحامد لله تعالى هو محبوب عند الله تعالى.

وروى الإمام أحمد وغيره ، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافي له ولا مُؤوي له».

وفي (المسند) وغيره ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغ من طعامه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وجعلنا من المسلمين».

وروى ابن السني ، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نظر وجهه في المرآة قال: «الحمد لله الذي سوَّى خَلقي فعدله ، وكرَّم صورة وجهي فحسَّنها ، وجعلني من المسلمين».

وروى الطبراني وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نظر في المرآة قال: «الحمد لله الذي حسَّن خَلْقي وخُلُقي ، وزان مني ما شان من غيري».

وإذا لبس نعليه بدأ باليمنى ، وإذا خلع خلع اليسرى ، وإذا دخل المسجد أدخل رجله اليمنى ، وكان صلى الله عليه وآله وسلّم يحب التيمُّن في كل شيء: أخذٍ وعطاء.

فهو سبحانه يُحمد لكماله وجماله وجلاله ، ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول كما جاء في الحديث المتفق عليه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان

يقول: «اللهم ربنا لك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومَن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت مالك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم حق . . .» الحديث.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: لأنه هو الله الإلَه الحق ، المتصف بالكمالات المطلقة التي لا نهاية لها ، وكمالاته ذاتية له ، فحقّ له أن يحمد نفسه ، وأن يأمر عباده بحمده سبحانه ، ويُحمد لنعمه ونواله.

ومن ذلك محامده صلى الله عليه وآله وسلم عقب الأكل والشرب.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي: «إن الله تعالى ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها».

ويدخل تحت هذا الحمد الشكر ، لأن الحمد رأس الشكر ، كما تقدم.

وإليه يشير قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالقهم ورازقهم ومالكهم ومربّيهم ، وسيّدهم المطلق ، **فإن اسم الرب له معان:**

فقد يراد به الخالق ، وهذا هو الله تعالى وحده ، فلا يراد به غيره ، **وقد يراد به المالك** ، فإذا وصف به العبد وجب تقييده ، فتقول: رب الدار أي: مالكها ، **وقد يراد به السيد** ، قال تعالى

ـ إخباراً عن يوسف عليه السلام ـ : ﴿ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ الآية ـ أي : ارجع إلى سيدك ـ ، وقد يراد به المربّي ، فيقال : فلان رب العائلة ، ففي جميع ذلك إذا وصف به العبد يجب تقييده .

فإطلاق اسم الرب هذا خاص بالله تعالى ، فإنه سبحانه هو الرب المطلق ، فلا يجوز إطلاق اسم الرب على العبد ، كأن تقول فلان رب ، فإن اسم الرب إذا أطلق لا يراد به إلا الله تعالى .

كما جاء في (صحيح) مسلم وغيره ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول : «اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أنك الربُّ وحدك لا شريك لك .

اللهم ربنا وربّ كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك .

اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة .

اللهم ربنا ورب كل شيء اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة ـ يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب» .

فاعتبر في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «أنا شهيد أنك الربُّ وحدك لا شريك لك» ، فأطلق اسم الربّ على الله تعالى وحده ، ومن هنا تعلم أن اسم الربّ بالإطلاق لا يطلق إلا على الله رب العالمين .

ومن خصائص اسم الربّ أن فيه إجابة الدعاء ، ويستحب تكريره كما روى البزار ، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إذا قال العبد يا رب أربعاً قال الله تعالى : لبيك عبدي سل تعطه» .

ورواية ابن أبي الدنيا كما تقدم يقول: «ربِّ ربِّ».

وروى الطبراني وغيره، من حديث سعد بن خارجة، أنّ قوماً شكوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قحوط المطر فقال: «اجثوا على الركب، وقولوا: يا ربّ يا ربّ، وارفعوا السبّابة إلى السماء» ففعلوا ذلك فسُقوا، حتى أحَبُّوا أن يكشف عنهم المطر.

وفي (المسند) وغيره، عن الفضل بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الصلاة مثنى مثنى، وتشهد في كل ركعتين، وتضرع، وتخشع، وتمسكن، وتفتح يديك تقول ترفعهما إلى ربك مستقبلاً بهما وجهك، وتقول: يا ربِّ يا ربِّ، فمن لم يفعل ذلك فهي خداج» أي: صلاته ناقصة.

وروى يزيد الرقاشي، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «ما من عبد يقول يا ربّ يا ربّ يا ربّ، إلا قال له ربّه لبيك لبيك».

وعن عطاء: (ما من عبد يقول يا رب ثلاثاً إلا نظر الله تعالى إليه).



﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

وأنواع العالمين لا يعلمها إلا خالقها ، والعالم ما سوى الله تعالى من كل موجود ؛ مغيَّب أو مشهود.

قال تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فالعوالم كثيرة كبيرة فمنها نفسية ، ومنها آفاقية تشاهدها .

وفي قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ينبه الله تعالى إلى أمور فيها بيّناتٌ وبيانات :

أولاً: تعريف العباد ، وحملهم على الإقرار بوجوب وجوده ، فإنّهم يبصرون ويشاهدون العوالم ولا ينكرونها ، لأنها موجودة مشهودة ، وهي علامات مثبتة لصانعها ، فَمَنِ الذي صنعها ، فإنهم لا يستطيعون ذلك.

إذاً إنّ لها خالقاً خلقها ، لأنهم لا يستطيعون خلقها ، فمن رأى البناية أيقن بوجود الباني ، ومن رأى الأشجار أيقن بوجود الغارس لها ، ومن رأى الآلات أيقن بوجود القوى المحركة لها ـ ولو لم يشهدها ـ ومن رأى المصنوعات أيقن بوجود صانعها؛ فهذا العالم المصنوع صنعه مَنْ؟

نعم كما قال تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .

ولذلك قال تعالى : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

فإذا شاهدوا العوالم بأعينهم فقد شاهدوا وعاينوا قدرة الله

تعالى ، الذي خلقها وأبدعها ، وشاهدوا حكمته ؛ أيقنوا بعلمه المحيط بكل شيء قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ؟ !

فالعلم بالخلق سابق على التخليق ، والعلم بصنع البناء سابق على إقامة البناء عقلاً ، فرؤيتهم مظاهر الصفات وآثارها تدلهم وتعرفهم بالله تعالى ، المتصف بجميع الكمالات المطلقة ، معرفة تحملهم على اليقين الجازم ، بل تحملهم على عين اليقين بوجوب وجود الله تعالى ربّ العالمين ، ووحدانيته ، وحقية ألوهيته ، وأن كمالاته لا تنتهي .

فالقدرة مالها انتهاء كما قال تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ .

فإن نسبة القليل والكثير إلى ما لا ينتهي هي متساوية ، وإذا اختلفت دلّ على التناهي ، فإن نسبة العشرة والمائة إلى العدد الكبير المتناهي متفاوتة ، ولكن نسبتهما إلى ما لا يتناهى متساوية فافهم .

وفي الحديث : «ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة في فلاة ، والكرسي في العرش كتلك الحلقة» .

وقد فهم العارفون من هذا الحديث أن العوالم كروية مستديرة ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم يشبه ذلك بالحلقة ، وهي مستديرة .

وفي الحديث : «إن لله ملكاً لو أمره الله تعالى أن يبتلع السموات والأرض بلقمة لابتلعها ، تسبيحه : سبحانك حيث كنت» رواه الطبراني .

وفي الحديث : «أُذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله

تعالى : أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام» رواه أبو داود.

فالقدرة الإلَهية ما لها نهاية ، فما صدر عنها من صغير وكبير ؛ ومن جزئي وكلِّي ؛ فذلك بالنسبة للقدرة على حدٍّ سواء ، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

وعلمه سبحانه ماله انتهاء ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ومهما أقللت من هذه القلَّة ، وتصورت من قلتها ، فالواقع أقل ، ولذا قال سيدنا الخضر لسيدنا موسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام كل حين وأوان ، قال له: «ما علمي وعلمك وعلم سائر الخلائق في علم الله تعالى إلا كما أخذ هذا العصفور من البحر. . . » متفق عليه.

فعلم الله تعالى وجميع صفاته لا حد لها ولا انتهاء ، فإنّ إليه المنتهى ولكنه ليس له انتهاء ، وبيان ذلك بِمَثَل تقريبي ، للفرق بين الكثير وبين ما لا يتناهى ، مَثَل ذلك: لو أن الله تعالى أمر ملكاً من الملائكة عليهم السلام بنقل تراب عالم الدنيا إلى عالم آخر ، فجعل الملك ينقل تراب الدنيا كل مليون سنة واحدة من التراب ، حسب ما أُمر بذلك فهو كم يحتاج؟ يحتاج إلى الملايين الكثيرة من السنين حتى ينقلها كلها إلى عالم آخر ، فمهما كثرت تلك السنون فهذه المدة الطويلة كلها متناهية؛ وإن طالت دهوراً وعصوراً ، وهذه المدد الطويلة كلها تعتبر من باب المتناهيات ، وأما ما لا يتناهى فهو ما لا يتناهى بحد ولا بمقدار ، ولا بامتداد الدهور

ولا الأعصار ، ولا يدخل تحت حكم العد ولا الإحصاء ، ولا الإحاطة ولا الاستقصاء ، من جميع الوجوه والاعتبارات ، فسبحان من أحاط علمه بالمتناهيات واللامتناهيات.

ثانياً: فيه بيان فقر العالم إلى ربّه ، وغنى الرب سبحانه بالذات عن العالمين ، وإنّ فقر العالم إلى ربه هو فقر ذاتي من جميع الوجوه والاعتبارات ، وإن غنى الرب سبحانه عما سواه هو غنى مطلق ذاتي له وحده ، فإن ربّ العالمين هو خالقهم ومربيهم ، فالعالم في كل لحظة أو لمحة بصر بل أقرب من ذلك محتاج ومفتقر إلى أن يمده الله تعالى بالوجود ، وما يتطلبه هذا الموجود مما يتوقف عليه نظام بقائه ووجوده ، فإن المربوب لا يستغني عن ربه سبحانه وتعالى.

فإن جميع الأشياء ـ كما قرره أهل العلم ـ هي لدى السبر والتقسيم عقلاً وواقعياً هي ثلاثة أقسام: ١ ـ الواجب وجوده ، ٢ ـ المستحيل وجوده ، ٣ ـ الممكن وجوده وعدمه.

فواجب الوجود الذي لا يجوز في العقل عدمه أزلاً وأبداً هذا هو الله تعالى وحده ، بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا جلّ وعلا سبحانه وتعالى ، وهذا ثابت بالأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ، كما هو مفصل في موضعه.

وأما المستحيل وجوده فهو ما يُحيل العقل وجوده بالأدلة القطعية أيضاً ، كتعدد الآلهة ، وشريك الباري تعالى ، ونحو ذلك.

وأما الممكن وجوده وعدمه ، فهذا ليس له من نفسه إلا العدم

ولكن لا على وجه الاستحالة كما هو في المستحيل ، بل الممكن هو قابل للوجود من مُوجده وهو الله تعالى ، فإذا أفاض الله تعالى نور الوجود عليه صار موجوداً بإيجاده سبحانه ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ .

أي: فيظهر في عالم الكون بالوجود الخارجي ، ولكن هذا الوجود الذي ظهر به الممكن ليس واجباً له ، ولا يملكه ، فلا يستغني عن موجده لمحة بصر ؛ ولا أقل من ذلك ، بل هو مفتقر إلى إمداد الله تعالى له بالوجود في كل لمحة بصر ؛ بل أقرب من ذلك ، فما أشد فقر العالم إلى ربه ، وما أعظم غناه ـ سبحانه ـ عن غيره ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ .

ثالثاً: فيه التحدي والإعلان لجميع العباد ، بعجزهم عن أن يخلقوا مثل هذا العالم ، بل هم عاجزون عن إحاطته ، فهو سبحانه رب العالمين وحده لا شريك له ، فهذه الكواكب وهذه الشمس ، وهذه الأرض ، وسَيْرها بحسبان دقيق ، وإيقاعها في أفلاكها ومواقعها المعيّنة لها؛ ذلك تقدير العزيز العليم ، وهكذا الجبال والبحار ، والهواء والماء؛ فجميع ذلك تعجز عن إيجاده قُدرة العباد ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، فإذاً يقال مَنِ الذي أوجدها؟ نعم هذا هو الله ربّ العالمين ، فالحمد لله ربّ العالمين حقاً .

رابعاً: فيه بيان كثرة العوالم وعظمها ، فإن الله تعالى العليّ العظيم ، لما مدح نفسه ، وحمد نفسه سبحانه بأنه رب العالمين ، دلّ ذلك على أنّ أمر العوالم عظيم خَلقاً وتدبيراً ، وأحكاماً وحِكمة. . . وكلمة ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: هي كثيرة جداً لا تحصى ،

فمِنْ ذلك : عالم الأمر والخلق وسعتهما ، وعالم الملكوت ، وعالم الجبروت ، وعالم العرش ، وعالم الكرسي ، وعالم القلم ، وعالم اللوح ، وعالم المثال ، وعالم البرزخ ، وقد ذكرت جملة من العوالم العلوية في كتاب : (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) فارجع إليه .

ومن جملة العوالم التي مرّ عليها الإنسان: عالم الأرواح ، وعالم الذر ، وعالم الأصلاب ، وعالم الرحم ، وعالم الدنيا ، وعالم النوم .

وأما العوالم التي سيمر عليها الإنسان بعد الموت فقد ذكرت ذلك في كتاب : (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) .

ولكل عالم من هذه العوالم التي مر عليها الإنسان أحكام وخصائص :

فعالم الذر هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ ـ أي : أنت ربنا حقاً ـ ﴿ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ .

وعالم الأصلاب هو المذكور في قوله تعالى ـ مُمتناً على هذه الأمة المحمدية : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ ـ أي : الطوفان العامّ نصرة لنوح عليه السلام حملناكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ السفينة حيث كنتم في أصلاب الذين ركبوا مع نوح عليه السلام ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ ـ أي : لتذكروا هذه النعمة عليكم ، وتعوا ؛ فتشكروا ربكم سبحانه .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سألت ربي أن يجعلها أُذن علي».

قال مكحول : فكان علي رضي الله عنه يقول: (ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً فنسيته) رواه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مَرْدُوْيه عن مكحول.

وأما عالم الرحم فهو المذكور في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .

ففي هذا العالم جرى على الإنسان التصوير ، وتسجيل التقدير: بكتب رزقه ، وأجله ، وشقي أو سعيد ، وخُص كل إنسان بصورة ليست كغيرها من صور بني آدم ، وأجرى الله تعالى التبديل والتطوير عليه.

قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: ظلمة المشيمة ، في ظلمة الرحم ، في ظلمة بطن الحامل.

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ فلا تمدحوا أنفسكم ، بل احمدوا الله تعالى الذي وفقكم ، والمعنى: أنّ الله تعالى هو أعلم بكم وأحوالكم ، بعلمه القديم الذي لا أول له ، وهو أعلم بكم إذ أنشأكم في ضمن نشأة أبيكم آدم عليه السلام من تراب الأرض ، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ، ومن المعلوم أنّ الأرض مختلفة البقاع والتربة في

لونها ، ومنها السهل والوعر ، ومنها الخبيث والطيب ، فهو سبحانه يعلم من أي تربة خلقكم منها .

وبيّن معنى الآية ما جاء في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض؛ جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبَيْن ذلك ، والسهل والحزن ـ أي: الغليظ الذي فيه عنف ـ والخبيث والطيب وبَيْن ذلك» رواه الترمذي وصححه ، وأبو داود ، وأحمد ، والحاكم وغيرهم .

فخلق سبحانه من الأرض الحمراء الأحمر ، ومن البيضاء الأبيض ، ومن السوداء الأسود ، وهذا من حيث الألوان ، ومن حيث الأخلاق: فخلق من سهل الأرض سهل الخلق اللين الرفيق ، ومن حَزنها وغليظها الفظ الغليظ ، ومن الأرض الطيبة ذات النبات الحسن خلق المؤمن الطيب ، فإنه طيب كله ، طاب بالكلمة الطيبة وهي: لا إله إلا الله ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ جاء في الحديث هي: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وخلق من الأرض الخبيثة الكافر ، قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ .

وقد روى سعيد بن منصور ، وأبو حاتم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه: (إن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم عليه السلام بعث ملكاً

من حملة العرش يأتي بتراب من الأرض ، فأخذ من وجهها ـ أي: من أديم الأرض كلها ـ ومن طيبها وخبيثها) الحديث كما في شرح المناوي والله تعالى أعلم.

وأما عالم المنام فهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

ففي هذه الآيات ، ذكر سبحانه عالمي المنام واليقظة ، وقرن بينهما ، ليعلم الإنسان أنّ عالم المنام هو عالم حقيقي ليس وهمياً ، بل له آثاره ، ألا ترى النائم إلى جانبك يرى ما يسره فيضحك؛ وأنت تراه يضحك ، ويرى ما يُخيفه فيبكي؛ وأنت قد تراه يبكي ويصيح ويصرخ ، وقد يرى من يخاصمه ويجادله فقد يعلو صوته وأنت تسمع ما يقوله أحياناً. . .إلخ.

فهذا دليل على أن المنام عالم حقيقي له آثاره ، ويُرى فيه الرؤيا الصادقة والصالحة ، وقد يُرى فيه الأحلام المختلطة ، ويعتبر عالم المنام برزخاً بين عالم الدنيا وبين عالم برزخ الآخرة بعد الموت ، ولذلك قد يرى النائم ماذا يحصل أو يقع في اليقظة ، لأن تلك الأمور تكون قد تنزلت حتى انتهت إلى البرزخ بين الدنيا والآخرة ، وربما انكشف للنائم أمور غيبية لعروج روحه في النوم إلى العوالم العلوية ـ والناس في ذلك على مراتب مختلفة.

ويدلك على أن عالم المنام له اعتباره الحقيقي ، ما ذكره الله تعالى عن يوسف الصديق على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾.

ثم ذكر سبحانه تحقق تلك الرؤيا وتأويلها ، فقال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ .

وقد تكلمت على أنواع الرؤيا وآدابها في كتابي : (الدعاء) وغيره ، كما ذكرت جملة من العوالم العلوية في كتاب : (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) فارجع إليه ينفعك بإذن الله تعالى.

﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

جيء بهذين الوصفين بعد قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وفي هذا وجوه من الحكم:

أولاً: بيان أن رحمته سبحانه ملازمة لربوبيته ، فهو سبحانه رب العالمين أي: خالقهم ، وملكهم أي: المدبر أمورهم والمتصرف فيهم ، ومالكهم فهم مملوكون له ، وسيدهم فالكل عباده ، ولكن جميع ذلك قائم على أساس الرحمة ، فخلقه وتدبيره أمور عباده وتصرفه فيهم كل ذلك محاط بالرحمة ، قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ، فالعرش العظيم محيط بجميع العوالم وهو ـ أي: العرش ـ محاط باسم الرحمن.

وقال سبحانه ـ في سورة يونس ـ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ الآية.

فتدبيره أمور عباده ومخلوقاته كل ذلك صادر عن رحمانيته ،

ومن المعلوم أنّ العرش العظيم هو محيط بجميع العوالم ، كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية ، وقد ذكرت ذلك مفصلاً في كتابي (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم).

ثانياً: إنّ ذكره سبحانه هاتين الصفتين ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بعد قوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فيه بيان وجه من وجوه استحقاقه للحمد وذلك لأنه ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

ثالثاً: فيه بيان أنّ رحمته وسعت جميع الخلائق ، وجميع العالمين في جميع العوالم الماضية والآتية ، على مختلف أجناسها وأصنافها ، كما قال سبحانه: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾.

رابعاً: لقد ذكر الله تعالى في سورة الرحمن التي افتتحها باسمه الرحمن؛ ذكر فيها شمول رحمته وشواهد ذلك ومشاهد ذلك ، فعدد أصنافاً كثيرة وأنواعاً كبيرة من آثار اسمه الرحمن ، ومظاهره في الأكوان ، وما في ذلك من نعمه وآلائه في الدنيا والآخرة ، وكلما ذكر صنفاً من النعم أردفها بقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ امتناناً عليهم بما هم يقرون به ، ولا يمكنهم إنكاره ، ففي سورة الرحمن ترى مظاهر هذا الاسم وآثاره المتجلّية في جميع العوالم والأكوان: المشهودة بالجنان ، والمبصَرَة بالعيان؛ الساطعة البرهان على وجه لا يختلف فيه اثنان ، كما قال سبحانه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

وقد نقل الحافظ البيهقي عن العلامة أبي سليمان الخطابي أنه قال: ذهب الجمهور من الناس ـ أي: العلماء ـ أنّ اسم الرحمن مشتق من الرحمة ، مبني على المبالغة ـ أي: جاء على صيغة فعلان

التي تدل على المبالغة ـ ومعناه ذو الرحمة التي لا نظير له فيها سبحانه ، ولذلك لا يُثنى ولا يجمع ، كما يثنى اسم الرحيم ويجمع ، وبناء فَعلان في كلامهم ـ كلام العرب ـ بناء المبالغة ، يقال لشديد الامتلاء : ملآن ، ولشديد الشبع : شبعان.

قال رحمه الله تعالى: والذي يدل على مذهب الاشتقاق في هذا الاسم ـ أي: اسم الرحمن من الرحمة خلافاً لمن أنكر اشتقاقه ـ حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «قال الله عزّ وجلّ: أنا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته».

قال الخطابي رحمه الله تعالى: فالرحمن هو ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم وأسباب معايشهم ومصالحهم ، وعمّت المؤمن والكافر والصالح والطالح ، وأما الرحيم فخاصٌّ بالمؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ .

قال: والرحيم وزنه فعيل بمعنى فاعل ، وبناء فعيل أيضاً للمبالغة كعالم وعليم وقادر وقدير. اهـ.

فالله تعالى هو الرحمن الرحيم ، وهو سبحانه خير الراحمين ، كما قال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ، وهو سبحانه أرحم الراحمين ، قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ .

وهذا من جملة الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله تعالى به

أجاب ، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ الآية.

ومن دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين» الحديث المشهور وقد ذكرته بتمامه في كتاب (الدعاء).

وروى أبو الشيخ وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ألحّ رجل بيا أرحم الراحمين ـ أكثر من دعائه بيا أرحم الراحمين ـ فنودي أن قد سمعتُك فما حاجتك» أي: فسل تعط.

وروى الحاكم ، عن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لله تعالى ملكاً موكلاً بمن يقول: يا أرحم الراحمين ، فمن قالها ثلاثاً ، قال له الملك: إنّ أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل» أي: تعط.

وروى العلامة السهيلي بسنده إلى الليث بن سعد قال: بلغني أن زيد بن حارثة اكترى ـ استأجر ـ بغلاً من رجل ، واشترط عليه أن يُنزله حيث شاء زيد.

قال: فمال به ـ صاحب البغل ـ إلى خربة فقال له: انزل فنزل ، فإذا في الخربة قتلى كثير ـ أي: كان يأخذ ما لهم ثم يقتلهم في تلك الخربة المهجورة بسيف معه ـ فلما أراد أن يَقتله ، قال له زيد: دعني أصلي ركعتين ، قال: فلما صليت أتاني ليقتلني ، فقلت: يا أرحم الراحمين ، قال: فسمع صوتاً لا تقتله ، فهاب الرجل من ذلك الصوت ، فخرج ليطلب ـ أي: ليبحث عن الصوت ـ ثم رجع

إليّ ، فناديت : يا أرحم الراحمين ـ فعل ذلك ثلاثاً ـ فإذا أنا بفارس على فرس بيده حربة حديد ، في رأسها شعلة نار ، فطعنه بها فأنفذها من ظهره ، فوقع مَيتاً ثم قال لي : ـ أي : الفارس ـ لما دعوت المرة الأولى يا أرحم الراحمين كنت في السماء السابعة ، فلما دعوت الثانية يا أرحم الراحمين كنت في سماء الدنيا ، فلما دعوت المرة الثالثة يا أرحم الراحمين أتيتك .

قال الحافظ الزرقاني : وفي هذا دليل الاعتناء بهذا الدعاء ، وأن المخلص فيه محقق الإجابة . ا هـ من (المواهب وشرحها) .

﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾

المالك: هو الذي يملك رقاب الأشياء وذواتها ، فهي ملك له ، وأما الْمَلِك فهو المتصرف في الأمور والمدبّر لها ، فالله تعالى هو ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ومالك ما جُمع فيه من الأولين والآخرين ، وهو مَلك يوم الدين كما جاء في قراءة سبعية ، وقال تعالى : ﴿ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ .

وروى البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَقبض الله تعالى الأرض ، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض» .

وأما ﴿ ٱلدِّينِ ﴾ **فقد تطلق** كلمة الدين على العقيدة وما تتطلبه من الأعمال والأقوال ، ومنه : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَـٰمُۗ ﴾ أي :

الاستسلام له سبحانه ، اعتقاداً بالجنان ، وعملاً بالأركان ، وقولاً باللسان .

ويقال : دان به إذا اعتقده وعمل به ، قال تعالى ـ في الكفار ـ : ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ .

وقد تطلق كلمة الدين على الحساب والجزاء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ .

يقال : دانه إذا حاسبه وجازاه ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ . . . ﴾ أي : جزاءهم الحق دون ظلم .

وكما جاء في الحديث : «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[(١)] .

فمعنى دان نفسه : أي : حاسب نفسه في الدنيا قبل الموت .

فالمراد بالدين هنا في الآية : الجزاء والحساب ، وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، فهو سبحانه وتعالى مالك يوم الدين ، وهو ملكه وحده لا غيره ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ .

---

(١) رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه والحاكم ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه ، وفي رواية البيهقي عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «الكيِّس من عمل لما بعد الموت ، والعاري : العاري من الدِّين ، اللهم لا عيش إلاَّ عيش الآخرة . . » .

وكما جاء في الحديث الذي رواه عبد الرزاق في (مصنفه) عن أبي قلابة ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «البِرُّ لا يَبلى ، والذنب لا يُنسى ، والديَّان ـ سبحانه ـ لا يموت ، اعمل ما شئت كما تَدين تُدان» أي: تحاسب.

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه ، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يَحشر الله تعالى العباد يوم القيامة ـ أو قال: الناس ـ عراةً غُرلاً بُهماً».

قال: قلنا: وما بُهما؟

قال: «ليس معهم شيء.

ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرب: أنا الدّيان ، أنا الملك:

لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق؛ حتى أقصّه منه.

ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق؛ حتى أقصّه منه ـ حتى اللطمة».

قال: قلنا: كيف وإننا عراة غرلاً بُهما؟

قال: «الحسنات والسيئات..»[1].

وجاء ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بعد ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليبيّن سبحانه كمال ربوبيته بالرحمة لعباده المربوبين ، ومن الرحمة أن

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن.

يُنزل عليهم كتباً ، ويرسل رسلاً فتعلمهم ما ينفعهم وما يضرهم ، بأوامر ومناهي ، فمن أطاع فله جزاؤه ، ومن أساء فعليه سوؤه؛ فمن الرحمة إنزال الكتب وشرع الشريعة ، قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ .

وهو يتضمن أوامر ومناهي ، فمن أخذ بها وأطاع وأحسن فله الحسنى ، ومن أساء فله السوآى ـ كما هو مقتضى الحكمة .

قال تعالى : ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ .

وفي الحديث : «يقول تعالى يوم القيامة : أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين» .

وقال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ . . .﴾ الآيات .

و﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هو من أيام الآخرة ، وذلك لأن اليوم الآخر هو آخر الأيام ، وله أول وماله آخر ، فقد اشتمل هذا اليوم على أيام وأزمنة ، يُوقع الله تعالى فيها الوقائع ، ويُحق فيها الحقائق ، ويُجري فيها أموراً متعددة ، فمن تلك الأيام الأخروية يوم الخروج ، ويوم الجمع ، ويوم التَّناد ، ويوم الآزفة ، ويوم الحساب ، ويوم العَرض على الله تعالى ، ويوم الدِّين .

ويرحم الله تعالى القائل :

إلى ديَّان يوم الدين نمضي
وعند الله تجتمع الخصوم
سنعلم في المعاد إذا التقينا
غداً عند الحساب مَنِ الظَّلوم

فيوم **الخروج** قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ الآيات.

وهو **يوم الجمع** قال تعالى: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي: جمعناهم في صعيد واحد.

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾

أي: الجزاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ أي: الجزاء والحساب، وهذا في اليوم الآخر.

فهما يومان: يوم الدنيا المشتمل على السنين والأيام، واليوم الآخر المشتمل على أيام متعددة تجري فيها وقائع وأمور؛ يوقعها الله تعالى إلى أن ينتهي أمر العباد إلى الجنة أو النار.

فاليوم الآخر يشتمل على أيام ـ كما تقدم ـ فمنها:

يوم الخروج، **ويوم التناد**، **ويوم الجمع** ـ أي: الحشر.

ويوم العرض على الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ الآية.

ويوم الحسرة كما قال سبحانه: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾.

ويوم التلاق كما قال سبحانه: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾.

ويوم الفصل ، وهو القضاء بين العباد ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ .

ويوم الآزفة كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي : القيامة القريبة ، وذلك بالنسبة لما مضى .

قال تعالى : ﴿ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي : نفس كاشفة وقت وقوعها ، أو مزيلة لأهوالها .

وفي ذلك اليوم يكون القضاء بين العباد ، قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فلما جاء لفصل القضاء ، أشرقت الأرض بنور ربها ، قال تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أي : حين تجلى لفصل القضاء ، وبهذا النور ظهرت خفايا الأمور ، وخبايا الصدور ، فهنا علمت نفس ما أحضرت ، ووجدت ما عملت ، لأن قوة النور تُظهر دقائق الأمور .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ دليل قوة نورها ، قال سبحانه : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي : فهو نُورها ، وبه ظهورها ، فأظهرها بأنواره من ظلمات العدم فصارت ظاهرةً ، موجودة بنور الوجود المفاض عليها من واجب الوجود ، الذي أشرقتْ له الظلمات فصلح أمْر الدنيا والآخرة .

وقد جاء في دعائه صلى الله عليه وآله وسلم يوم الطائف : «اللهم إني أشكو إليك ضعف قُوَّتي وقلَّةَ حيلتي ، وَهواني على الناس .

يا أرحم الراحمين : إلى مَن تكلُني ، إلى عدوٍّ يتجهَّمني ـ أي : يتلقاني بالغلظة والوجه الكريه ـ أم إلى قريب ملَّكتَه أمري ، إن لم

يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي ـ وفي رواية: «إن لم تكن ساخطاً عليَّ فلا أبالي» ـ غير أنَّ عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءتْ له السموات والأرض، وأشْرَقتْ له الظلمات، وصَلح عليه أمر الدنيا والآخرة: أن تُحِلَّ عليَّ غضبك، أو تُنزِل عليّ سخطك.

ولك العُتبى ـ أي: الرجوع عما لا يرضيك ـ حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلاَّ بكَ» رواه الطبراني وغيره عن عبد الله بن جعفر.

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾

في ذلك تنبيهات متعددة:

الأول: فيه تنبيه إلى حَقيّة ذلك اليوم، ومعقوليته، وحكمته، وذلك أنَّ القضية هي دين، أي: جزاء، ومن المعلوم أن الجزاء إنما يكون عقلاً على حسب العمل، فالمحسن له إحسانه، والمسيء عليه سوؤه ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴾ وهذا مما يقره كل ذي عقل.

فقوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ جاء بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

فإن الله تعالى رب العالمين، ومن شأنه أن يربي عباده، ويدلهم على ما فيه صلاحهم، ويحذرهم ما فيه فسادهم، وذلك بإنزال الشرائع الإلٓهية، والكتب الإلٓهية التي جاءت بها الرسل عليهم السلام، فمن العباد من حَقق تلك الإرشادات والتعاليم الإلٓهية الشرعية، فأحسن العمل وأصلحه، ومنهم من خالف تلك

الإرشادات والشرائع فأفسد وأساء ، فلا بدّ من مُقتضى الحكمة أن يلقى كلٌّ جزاء ما عمله ، كما قال سبحانه : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ الآية .

فجاء ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يبين حكمة رب العالمين في جمعه الناس يوم الدين ، وأنه لا بُدَّ منه ، لأنه يوم فيه جزاء كل عامل بعمله ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلَّم في خطبته: «ألا وإن الدنيا عَرَض حاضر ، يأكل منه البَرُّ والفاجر ، ألا وإنَّ الآخرة أجل صادق يقضي فيها مَلك قادر .

ألا وإنّ الخير كله بحذافيره في الجنة ، ألا وإنّ الشرَّ كله بحذافيره في النار .

ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» .

قال في (المشكاة): رواه الشافعي رضي الله عنه ، وفي (الدر المنثور): رواه أبو نعيم والحسن بن سفيان في (مسنده) .

كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ أي: إنك كادح في هذه الدنيا إلى أن تلقى ربك فيجازيك ويحاسبك .

الثاني : التنبيه إلى إحسان العمل ، لأنه سوف يجازى عليه ، والإبعاد عن السوء لأنه سوف يَلقى سوء ما عمل .

الثالث : أنّ ذلك مُقتضى الحكمة ، لأن المساواة بين المحسن والمسيء غير معقولة ولا مقبولة ، كما أنه لا تتساوى الأضداد : العلم والجهل ، والظلمة والنور ، قال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ .

فالدين ـ أي : الجزاء على الأعمال ـ هو مقتضى الحكمة الإلّهية ، والله تعالى يُوفيهم دينهم الحق ـ أي : جزاءهم ـ وهو ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

الرابع : فيه دليل على أنّ العباد المكلفين أعطاهم الله تعالى العقل والفكر والاختيار ، والقدرة الممكّنة لهم من فعل الخير والشر ، ورتَّب على ذلك جزاءهم ، فلولا أنّ لهم اختياراً لما استحق المسيء العقاب ، ولما استحق المحسن الثواب ، لأنّه حينئذ كل قد فعل ما فعله مجبوراً ؛ ولم يكن مختاراً .

قال تعالى ـ في الكفار ـ : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ .

فنسب البغي إليهم ، وأخبر سبحانه بأنه صادق فيما يقوله ؛ والصدق هو : مطابقة القول للواقع الحقيقي ؛ فإذاً هم بُغاة حقاً وحقيقة ، باختيارهم وإرادتهم ، ومَنْ أصدق من الله قيلاً ؟

وقال تعالى : ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ أي : حقيقة واقعة ، لا وهماً ولا خيالاً .

وقال سبحانه ـ في المؤمنين ـ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾ أي: حقيقة واقعية، هم مؤمنون باختيارهم ، لا وهماً ولا تخيلاً.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴾ أي: نعيم الجنة كان لكم جزاءً على عملكم المبرور ، وشَكَرَهم على سعيهم ، لأنّه صدر منهم باختيارهم؛ فلولا أنّ لهم اختياراً في ذلك لما استحقوا الشكر على سعيهم.

وقال تعالى: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾.

الخامس: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ في هذا موقف تمجيد العبد لربه تعالى ، كما جاء في الحديث: «فإذا قال العبد: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال الله تعالى: مجّدني عبدي» والمجد في اللغة: عُلو الشرف ، وعزّة المقام ، ولا شك أنّ المجد الأعظم ، والعز الأكرم ، والسلطان الأمنع ، والمقام الأرفع على وجه لا يُساوى ولا يُدانى ، ولا يماثل ولا يشابه ، ذلك كله لله رب العالمين وحده ، فإنه سبحانه هو أهل الثناء والمجد الذاتي المطلق ، الأعلى الأجل ، ومن ثم جيء بعد الحمد في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وبعد الثناء في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ جيء بالتمجيد بقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجمع بينهما كما جاء في (صحيح) مسلم ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال: «ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من

شيء بَعْد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد؛ اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»).

فالله تعالى هو الحميد المجيد ، وهو سبحانه يحمد نفسه وحُقّ له ذلك ، ويمجّد نفسه وحقّ له ذلك.

روى الإمام أحمد ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول بيده هكذا يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجّد الرب نفسه: أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم».

قال ابن عمر رضي الله عنهما: فرجف المنبر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قلنا ليخرّن به.

وفي روايـة مسلم: قال ابن عمـر رضي الله عنهما: حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء ـ أي: كله ـ حتى إنّي لأقول: أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فانظر يا أخي المؤمن ويا أختي المؤمنة ، واعتبروا في هذا المنبر كيف يتأثر بموعظة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويخشع لسماعه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويغلبه حال الخشية والهيبة ، فيهتز ، ويضطرب.

وسبقه إلى ذلك جذع النخلة الذي كان يخطب رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم عنده ، فلما فارقه وصعد المنبر غلبه حال الشوق وألم الفراق للحبيب الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، فصاح وناح ، وحَنّ وأنّ ، حتى مسحه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وسكّنه ، وهدأه كما يُهدأ الصبي من بكائه ، فما بالك أنت يا أخي لا تتذكر ، ولا تتأثر ، ولا تحن شوقاً إليه صلى الله عليه وآله وسلم.

على نفسه فليبك من ضاع عمره
وليس له من ذا نصيب ولا سهم

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

أي: لا نعبد إلا إيّاك ، لأنّك ربّنا ورب كل شيء ، والكل عبادك ، وحقٌّ على العبد أن يعبد ربه سبحانه.

والعبادة هي : قيام العبد بأعمال وأقوال شرعها الله تعالى له ، ملاحظاً أنه عبد يطيع ويتذلّل ، ويخضع لربه الذي هو رب العالمين ، وأنَّ ما يقوم به من تلك الأعمال والأقوال حق لله تعالى عليه ، فالعبادة قائمة على هذه الأمور:

١ ـ معرفة الله تعالى ، واعتقاد وحدانيته.

٢ ـ الطاعة لله تعالى فيما أمر به ، والانتهاء عما نهى بواسطة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالائتمار بأمره تعالى ، واتِّقَاء ما حرمه هو العبادة ، كما في الحديث: «اتق المحارم تكن أعبد الناس. . . » الحديث كما في (سنن) الترمذي.

ولا بد في ذلك كله من ملاحظة الذلّ ، وخضوع العبد لربه الذي خلقه ورزقه ، وبيده الأمر كله ، وهو رب العالمين كلهم .

٣ ـ ملاحظة أنّ ذلك كله من باب القيام بواجب حق الرب سبحانه عليه ، باعتبار أنّ للرب حقّاً على العبد أن يعبده .

فالعبادة أمر تقتضيه العبودية لله تعالى؛ فمن خرج من دائرة العبدية لله تعالى ليس عليه أن يعبد الله تعالى ـ يعني: إذا زعم الإنسان أنه رب نفسه وأنه خلقها ، وهو يحييها ، وهو يميتها ، فما عليه أن يعبد رباً ، لأنه رب نفسه فيما يزعم!! ولكن لا يقول ذلك إلا المجنون ، بل والله لا يقول ذلك المجنون ، ولا الحيوان ، ولا الحمار ، ولا ما هو دون ذلك ، لأنه إذا كان يزعم أنه ربّ نفسه فليرزق نفسه ويمنع عنها الآفات؛ والعاهات؛ والموت ، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

فالرب حق وهو رب العالمين ، وكل ما سواه فهم عبيد له .

قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ أي: الآن ، وأما يوم القيامة فقد قال بعد ذلك سبحانه: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ .

إذاً فالعبادة لله تعالى هي حق ذاتيٌّ له ، لأنه الربُّ وحده ، وكلُّهم عباده .

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

فانظر في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: لأنه ربكم وأنتم عباده.

ثم أردف ذلك بدليل ربوبيته الحقة فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ الآية.

ومن هنا جاء في الحديث عن معاذ رضي الله عنه قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الدابة يوماً، فقال لي: «يا معاذ».

قلت: لبيك يا رسول الله ـ ثم سكت ساعة.

ثم قال: «يا معاذ».

قلت: لبيك يا رسول الله ـ ثم سكت ساعة.

ثم قال: «يا معاذ بن جبل».

قلت: لبيك وسعديك يا رسول الله.

قال: «أتدري ما حق الله على عباده»؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «حق الله على عباده أنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً».

ثم قال: «يا معاذ».

قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً»؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «حق العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً أنْ لا يعذبهم»[1].

فحقُّ الله تعالى على عباده أنْ يعبدوه؛ هو حق واجب ذاتيٌّ له، وأما حقهم عليه إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً أن لا يعذبهم، وفي رواية: «أن يغفر لهم» وفي رواية: «أن يدخلهم الجنة» فهذا حق هو سبحانه حَقّه على نفسه، تفضلاً منه وتكرماً، فإنّه سبحانه من كرمه وفضله هو قد يُحق على نفسه، وقد يوجب على نفسه، ويَكتب على نفسه، ويُحتِّم على نفسه، ويُحرِّم على نفسه، كل ذلك من باب الفضل والكرم، والجود الإلّهي.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

وقال تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

وفي الحديث القدسي: «وجبت محبتي للمتحابين فِيَّ، وللمتباذلين فيَّ، وللمتزاورين فيَّ، وللمتجالسين فيَّ» كما في الصحيح.

فهو سبحانه يُحقّ على نفسه، ويوجب على نفسه فضلاً منه وكرماً، وأما غير الله تعالى فما له على الله تعالى حَقٌّ واجب عليه، لأن كل ما سواه فهم عبادٌ له سبحانه.

---

(١) متفق عليه.

وفي الحديث: «يا عبادي إنّي حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»(١).

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾

هذا تلقين وتعليم من الله تعالى لعباده أن يقولوا ذلك، بعد أنْ وقفوا موقف الذاكرين له بـ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وموقف الحامدين له بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وموقف المثنين عليه بقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وموقف التمجيد له بقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، فقدموا تلك المقدمات، وارتقوا في القرب وعُلُوِّ الدرجات فقال لهم قولوا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الآيات.

فعلّمهم السؤال، والاستهداء، والاستجداء.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

فأنت ترى أنّ جميع ذلك جيء فيه بالنون الدالة على الجمع، فيقول العبد: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ولا يقول: إياك أعبد بالإفراد؛ وذلك لحكم:

أولاً: هذا موقف فيه هضم النفس، والاعتراف والإقرار بالعبودية لرب العالمين، والاستشعار بالذلّ والافتقار له، فكأنه

---

(١) رواه مسلم في (صحيحه).

يقول بلسان حاله: يا ألله ، أنت رب العالمين ، وأنت الرحمن الرحيم ، ومالك يوم الدين ، ولك عزّة الربوبية ، وسيادة الألوهية ، ما أنا بالذي بلغَتْ عبادتي القاصرة تلك المكانة حتى أذكرها وحدها ، وأتقدم بها إليك ، بل أخلطها وأجمعها إلى عبادات جميع العابدين لك ، وأذكر الكل بعبارة واحدة ـ لعلّك ترضى ـ فاسلكني في نظامهم ، وأجملني في جملتهم ، فإنّ فيهم الأنبياء ، والرسل ، والأولياء ، وكلهم عِبادُك وعبّادُك ، وخاصةً إمام العُبّاد وسيد العِباد ، وإمام الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فاقبلني في جملة العابدين من أتباعه ، وتقبل عبادتي بشفاعته وكرامته صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو إمام العبّاد والصالحين ، بنص قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

فإن ولاء الله تعالى وتوليته لعبد هي على قدر صلاحه ، فلما خص الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بتوليته الخاصة ، في قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ دلَّ على أن صلاحه فوق كل صلاح ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم أتقى الأولين والآخرين ، وأخشاهم لله تعالى رب العالمين ، كما في الحديث: «أما والله إنّي لأتقاكم لله وأخشاكم له. . . » .

وهو أكرمهم على الله تعالى ، كما في الآية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ .

صلى الله عليه وآله وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ثانياً: اتهام العابد نفسه بنقص العبادة اللائقة ، فيشفعها إلى عبادة العابدين ، لعل الله تعالى يقبل ذلك ، فإن من كرمه سبحانه أن يُلحق الناقص بالكاملين إذا انضم إليهم ، كما جاء في الحديث: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» والحديث معلوم.

ثالثاً: إنَّ الجمع في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وما بعدها فيه إعلان عن حاجة الكل إلى عبادته سبحانه وتعالى ، التي خلقهم الله تعالى لأجلها ، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، ففي الجمع بيان أنّ جميع العباد العابدين واقفون في هذا الباب ـ أي: التوجه إلى الله تعالى المعبود وحده ـ وهو أي العابد القائل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو واقف معهم ، وفيهم كامل العبادة وناقصها ، فكمال أهل الكمال يجبر ويغطّي على أهل النقص؛ من باب الفضل والجود الإلٓهي ، لأنه أكرم الأكرمين جلّ وعلا ، فهو أَجَلُّ من أن يقبل بعضاً ويردَّ بعضاً ، في حين أنّ الكل واقفون على بابه ، ومتوجهون إلى جنابه في عباداتهم ، واستعانتهم به ، وطلب الهداية منه إلى ما هنالك ـ سواء كانوا مجتمعين بأجسامهم كصلاة الجماعة ، أو متفرقين ومنفردين ، فإن القلوب كلها مجتمعة ومتوجهة إلى ربّ واحد ، ومعبود واحد سبحانه وتعالى ، والكلُّ يطلبون الإعانة ويسألونها من ربّ واحد ، ومعبود واحد ، ومُعين قدير واحد سبحانه وتعالى ، والكل متّبعون في عباداتهم لإمام واحد ، وهو الإمام الأكبر ، والحبيب الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إمام الأولين والآخرين ، والأنبياء والمرسلين ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

فلا إلٓه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة

تليق بمقامه الأسمى ، وكماله الأسنى ، وعلى آله وصحبه ، وأزواجه وذريته ، وعلينا معهم أجمعين .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾

قياماً بالحق الذي لك علينا ، ووفاء بالعهد الذي عاهدناك عليه ، وعقد البيع الذي التزمناه ، وقد تضمن شروطاً : ومنها : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

ثم ذكر سبحانه بعد عَقْد شرائه وبيعهم له سبحانه ـ ذكر شروطاً ، وكل شرط يتضمن عدة مطالب وواجبات ، وعدة التزامات ومسؤوليات ، فقال سبحانه : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أي : بشر المؤمنين الذين اشترى الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم ، وصَدَقُوا في بيعهم ، وأدَّوْا ما شرط عليهم من التحقق بتلك الصفات ، فلهم من الله تعالى البشارة العظمى .

اللهم اجعلنا من الموفين بعهدهم ، برحمتك وفضلك وإحسانك وكرمك ـ اللهم آمين .

لأنك يا ربِّ خلقتنا لعبادتك ، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ .

وبعبادتنا لك عزّنا وشرفنا ، وجاهنا وكرامتنا في الدارين ، لأنّك خلقتنا لتُكرمنا بعبادتك وتشرّفنا بها .

فبعبادتنا لك ننال قربك وحُبَّك ، وتدخلنا جنتك ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾ ونظفر بكل خير في الدنيا والآخرة .

وبعبادتنا لك نحفظ علينا كرامتنا الآدمية والإنسانية التي شرفتنا بها ، فإنّ المقصود من الشيء إذا لم يتحقق فيه ذلك المقصود ؛ فقد خرج ذلك الشيء عن حقيقته ، ولو بقيت عليه هيئته وصورته .

ألا ترى السيّارة فإنها صنعت لتسير بالركاب ـ لأنها سيّارة فعلاً ـ فإذا تعطلت أو تحطّمت ولم تسر فإنها والصخرة سواء في الحقيقة ـ وإن اختلفتا في الصورة ـ فلا يقال لها حقيقةً سيّارة ، لأنّها لم تعد تسير فعلاً ، وإن كانت صورتها وهيئتها سيّارة ، وإن كان اسمها بالظاهر سيارة .

وهكذا الفرس يَكرّ ويفرّ ، فإذا لم يكن كذلك فهو في الحقيقة حمار ، وإن كان اسمه فرساً لصورته وهيئته الظاهرة .

وهكذا الإنسان خلقه الله تعالى وصنعه للعبادة ، فالإنسان الحقيقي هو الذي اتصف بالإنسانية الإيمانية ، ولم تغلب عليه البهيميّة الحيوانية ، وهذا إنّما يكون إذا تحقق بالعبادة لله تعالى على الوجه الذي شرعه الله تعالى له ، وإذا لم يتحقق بتعاليم الله تعالى وعباداته ، فإنّ صورته إنسان ، لكنه في الحقيقة بهيمة حيوان .

قال تعالى ـ في الكفار ـ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وإنما كانوا أضل من البهائم لأنّ كل حيوان وبهيمة لها حدّها في وصفها البهيمي الحيواني، فالثعلب له صفته في المكر وخاصّته الثعلبية، ولكنه لا يوصف بصفة الحمار مثلاً، ولا بالعكس، وكل حيوان فيه نوع من البهيمية والحيوانية لا يتعداها، أما الإنسان فإنّه إن لم يتمسك بعبادة الله تعالى على الوجه الذي شرعه الله تعالى، فإنّه تجتمع فيه جميع الصفات الذميمة الحيوانية والبهيمية، فتراه من جهة احتياله كالثعلب، ومن جهة بلادته كالحمار، ومن جهة قلة حيائه دَيُّوثاً كالخنزير مثلاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

والله تعالى إنّما يذكر الحق، ويُبيّن الحقيقة، فهم إنسان بالصورة والهيئة؛ لا بالحقيقة والمعنى.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: أجرٌ دائم، غير مقطوع.

فالإنسان الكافر رده الله تعالى بسبب كفره أسفل سافلين، وأخرجه عن دائرة الإنسانية القيمة.

ويدلك على أن المراد بالإنسان الذي رده الله تعالى أسفل سافلين هو الإنسان الكافر، يدلك على ذلك أنّ الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، إذاً فهؤلاء لم يَردّهم أسفل سافلين، بل رفعهم أعلى علّيين، لأنهم حافظوا على إنسانيتهم

القويمة الكاملة ، بسبب تمسكهم بشريعة الله تعالى ، إيماناً به ، وعبادةً له سبحانه.

فإن للعبادات أسراراً وأنواراً وآثاراً:

١ ـ فمن أسرارها: أنها بها يكون القرب من حضرة الربّ ، كما قال سبحانه: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ ، فبالسجود يتقرب العابد من المعبود.

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد فأكثِروا الدعاء».

وفي الحديث القدسي: «وما تقرّب إليَّ عبدي بمثل ما افترضته عليه. . . » الحديث.

٢ ـ وبالعبادة ينصبغ بها قلب العابد ، بل وروحه ، بل وجسمه بالأنوار الإلٰهية:

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

٣ ـ وبالعبادة ينتقل العابد من العبدية العامة إلى العبدية الخاصة، التي يَنال بها شرف الإضافة إليه سبحانه ، وبها تكريمه وتفضيله:

قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

٤ ـ وبالعبادة تخليصه وحصانته:

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

٥ ـ وبها ينال البشائر:

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾.

٦ ـ ولهم من الله تعالى الأمان:

قال تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

فهم العِباد العُبَّاد، ومن ثَمّ قال بعضهم رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وأمثال هذه الآيات قال: العباد هنا جمع عابد، كما أنّ صِحَاب جمع صاحب، نعم إنّ شرف العباد على حسب شرف عباداتهم، وإنّ أشرف العِباد والعُبَّاد وأفضلهم وأكرمهم هو السيد الأكرم، والرسول الأعظم، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية.

٧ ـ وبالعبادة يطعم العبد طعم الإيمان وحلاوته:

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث من فعلهنّ فقد طَعِم طَعْم الإيمان: مَنْ عبد الله وحده وعلم أنّه لا إلّه إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسُه، ولم يُعط الهَرمة[1] ولا الدَّرِنة[2] ولا المريضةَ ولا الشَّرَط[3] اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله تعالى لم يسألكم خيرَه ولم يأمركم بشرِّه».

---

(١) الكبيرة السن.

(٢) الدرنة: الجرباء، وأصله من الدرن وهو الوسخ.

(٣) قال في (النهاية): الشَّرط اللئيمة: أي: رُذال المال، وقيل صغاره وشراره. اهـ.

وقد فصلت الكلام على بعض أسرار العبادات وأنواعها في كتابي (التقرب إلى الله تعالى) فارجع إليه تجد ما يسرك.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾

أي: لا نستعين إلا بك، فإنّه لا معين غيرك، إذ الكل مفتقر إليك، فأنت الغني المطلق بالذات والصفات، وما سواك كلهم فقراء إليك بالذات والصفات.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

فالعباد كلهم فقراء إلى الله تعالى، في وجود ذاتهم، وبقائهم، وحياتهم، وغذائهم، ومائهم، وجميع ذراتهم، وجميع أمورهم، **والله تعالى هو وحده** الرب الغني على الإطلاق، فها نحن نطلب منك، ونسألك يا ربنا أنْ تعيننا على جميع أمورنا الدينية، وما أبحته لنا من أمور دنيانا التي فيها معاشنا فأعنّا.

وهذا موقف الاستعانة، يشمل الإعانة على أداء الأمور الدينية، كما دلّ على ذلك حديث معاذ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معاذ والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ أن لا تدعنّ ـ أي: لا تتركن ـ في دبر كل صلاة ـ بعد كل صلاة ـ أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

وهذا الحديث فيه جوامع الدعوات التي فيها مجامع الخيرات:

١ ـ فيه سؤال الإعانة على ذكره سبحانه، ويدخل تحته الذكر اللساني والجناني، والذكر النفسي والملئي، والذكر القولي

والقلبي ، وجميع أنواع الذكر لله تعالى: القرآن الكريم ، والتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والتهليل ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وغير ذلك.

٢ ـ فيه سؤال الإعانة على الشكر ، ويدخل فيه: الشكر القولي ، وهو الحمد والثناء عليه سبحانه ، والشكر العملي قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ وهذا يكون بالأعمال الصالحة ، التي شرعها الله تعالى ، والشكر القلبي وهو الاعتقاد الجازم والعلم القاطع بأنه ما بك من نعمة فمن الله تعالى وحده قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

٣ ـ وفيه سؤال الإعانة على حسن العبادة ، وذلك ـ أي: حسن العبادة ـ هو تحقق العابد حال عبادته بالحضور القلبي ، بحيث لا يكون حال العبادة غافلاً أو لاهياً بل حاضر القلب ، ملاحظاً ما يقول ويعمل ، وبالمواظبة على ذلك يرتقي إلى مقام المراقبة لله تعالى ، ثمَّ المشاهدة وهي أعلى ، وكلٌّ من المراقبة والمشاهدة لها أنواع على حسب رتبة المراقِب والمشاهِد ، ويسمى هذا مقام الإحسان ، المذكور في حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم قال: «فأخبرني عن الإحسان»؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هو أنْ تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك..».

فالأول مشاهدة ، والثاني مراقبة.

وفي (الحلية) وغيرها ، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ، أن

النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، واحسب نفسك مع الموتى، واتق دعوة المظلوم فإنها مستجابة».

وتفصيل الكلام على مقام الإحسان تجده في كتاب (الصعود) وكتاب (التقرب) فارجع إليهما.

﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

وهذا يشمل الإعانة على ما ينفع العبد من الأمور الدنيوية، كما دلّ عليه الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «المؤمن القويّ خَيْرٌ وأحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف ـ وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإنْ أصابك شيء فلا تقل لو أنّي فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل ـ فإنّ لو تفتح عمل الشيطان»[1].

فليبذل المؤمن جهده على ما ينفعه من أمور دنياه، ولا يُقعده الكسل ولا يعجز عن العمل، وليستعن بالله تعالى على ذلك، فإن أصابه شيء: بأن خسر، أو فشل، أو لم يتحقق غرضه الذي سعى إليه، فلا يرجع على نفسه باللوم واللَّوْ، بل يقول: «قدَّر الله وما شاء فعل»، فيرد أمره إلى الله تعالى، فإنّ الله تعالى لا بُدَّ وأن يجبر كسره، ويخرجه من ضيق تلك المصيبة.

---

(١) رواه مسلم وغيره.

﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

يشمل الإعانة على الأعداء:

روى أصحاب (السنن) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: «اللهم أعنّي ولا تُعن عليّ ، وانصرني ولا تَنصر عليّ ، وامكر لي ولا تمكر عليّ ، واهدني ويَسر لي الهدى ، وانصرني على من بَغى عليّ.

ربِّ اجعلني لك ذكّاراً ، لك شكّاراً ، لك رَهَّاباً ، مطواعاً إليك مُخْبتاً ، أوَّاهاً منيباً.

ربِّ تقبل توبتي ، واهْدِ قلبي ، وسدد لساني ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثَبِّتْ حجتي ، واسلل سخيمة صدري» أي: نقِّ قلبي من الحقد والحسد والغِلّ؛ وسائر أمراض القلب ، وهذا من التعليم للأمة ، لأنّ قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم هو القلب الطيب التقيّ ، السليم النقيّ من جميع ما هنالك.

﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

في هذا موقف اعتراف العبد وإقراره بعجزه ، وأنّه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير ، وأنّه لا معين على الحقيقة إلاّ الله تعالى ، فهو سبحانه وحده المعين الذي لا يحتاج إلى معين ، وأنّ كل ما سواه سبحانه فهو العاجز المستعين به.

وفي الحديث: «اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنتَ

المستعان ، وبك المستغاث ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1].

وروى الترمذي وغيره ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فقال لي: «يا غلام: إنّي أعلّمك كلمات:

احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تُجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله.

واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإنْ اجتمعت على أنْ يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

فيجب على العبد أنْ يرجع في أموره كلها إلى الله تعالى ، فيسأله حاجاته كلّها ، لأنه لا يملك قضاء حاجات العبد إلا الله تعالى ، فهو سبحانه وحده ، هو الغني المطلق الذاتي ، وجميع العباد فقراء إليه فقراً ذاتياً، محتاجون إليه في كل شيء ؛ وهو سبحانه وحده الغني عن كل شيء.

قال تعالى: ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

وروى الترمذي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال

---

(١) رواه الطبراني وغيره.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سلوا الله من فضله ، فإنَّ الله يحب أن يُسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرَج».

اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم.

وروى الترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من لم يسأل الله يغضب عليه».

اللهم إنّا نسألك التوفيق لمحابك من الأعمال، وحسن الظن بك، وصدق التوكل عليك ، ونسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

وروى الترمذي ، وابن حبان ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى يسأله شِسع نعله إذا انقطع».

وفي رواية: «ليسأل أحدكم ربه حاجته ، حتى يسأله الملح ، وحتى يسأله شسعه» أي: زمام النعل ورباطه الذي يشد به.

وهكذا الاستعانة: فإنّ العباد كلهم عاجزون محتاجون إلى عونه سبحانه ، لا حول لهم عن حال إلى حال؛ ولا قوة لهم على فعل أمر من الأمور؛ إلا بالله العلي العظيم.

ولكن جميع ذلك لا ينافي أنّه سبحانه جعل لقضائه حاجات العباد أسباباً ووسائط ، وجعل لإعانته لمن استعان به أسباباً ، ووسائط ، ووسائل ، فالله تعالى هو المعين على الحقيقة ، ولا معين غيره ، ولكن قد جعل عونه لك منوطاً بواسطة ، وهذه الواسطة مَنِ الذي أعانها على عونك؟

نعم إنّما هو الله تعالى وحده لا شريك له.

فأنت قد تحتاج أن تحمل الحمل الثقيل على الدابة فتعجز ،

فتسأل الله تعالى الإعانة ، فقد يجعل فيك قوة على ذلك ، وقد يبعث إليك من يُعينك على ذلك .

وفي الحديث : «وتعين الرجل في دابته؛ فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة»[1] .

فالذي أعان على الحقيقة هو الله تعالى ، والرجل الذي أعانك هو واسطة لا تنكر ، وسبب في عون الله تعالى ، فلا تنكر المسبِّب ، ولا تعطل السبب ، ولا تنكر الوسائط التي جعلها الله تعالى واسطة ـ وهذا أمر ظاهر في أمور كثيرة ، فتجد أنّ الله تعالى أضافها ونسبها إليه سبحانه ، وتارة تجد أن الله تعالى نسبها وأضافها إلى السبب والواسطة .

فهناك الإحياء : قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ فهو سبحانه المحيي والمميت على الحقيقة .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فنسب الإحياء إلى الواسطة ، الذي هو سبب في حياة تلك النفس .

ومن ذلك الهداية : فإن الهادي الموفق هو الله تعالى وحده :

قال تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ الآية ، ومع ذلك فقد جعل لهدايته واسطة ، كما دلَّ عليه الحديث في خطبته صلى الله عليه وآله وسلم في الأنصار وفيها : «يا معشر الأنصار ألم أَجِدْكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي ، وعالة ـ أي : فقراء لا مال عندكم ـ فأغناكم الله بي» ، وكانوا كلما قال

(١) متفق عليه .

صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً قالوا: (الله ورسوله أَمَنُّ) الحديث[1].

فالله تعالى هو الذي هداهم، لكن بواسطة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وجمعهم وألّفهم به مع أنه قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بواسطتك، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فألّفكم الله بي» فلا تنكر السبب والواسطة.

وهكذا التوفية: قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية، فهو سبحانه يتوفى الأنفس ـ أي: يقبض الأرواح ـ ومع ذلك جعل لذلك واسطة، وهو ملك الموت، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: وكّله الله تعالى بكم.

وهكذا الرزق: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، فهو الرزاق على الحقيقة لا غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ الآية من سورة سبأ.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

فنسب الرزق للواسطة، فقال: ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾.

وهكذا الإعانة: فهو سبحانه وحده المعين على الحقيقة؛ قال تعالى ـ معلّماً لعباده أن يقولوا ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا نستعين إلا بك، لأنه لا معين غيرك، ومع ذلك قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ فأمر عباده أَنْ يُعين بعضهم

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

بعضاً على البر والتقوى ، فأضاف العون إليهم ، لأنهم واسطة في عون الله تعالى لهم.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه. . » الحديث كما في (صحيح) مسلم.

وفي الحديث ـ كما مرّ ـ: «وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة»(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وسواء في ذلك سائل المال ، أو العلم ، وغيرهما مما يحتاجه السائل.

وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذا لا يتنافى ولا يناقض قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وإذا سألت فاسأل الله» الحديث كما تقدم.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سلوني ما شئتم ، فما تسألوني عن شيء إلاّ بينته لكم» الحديث متفق عليه.

وفي الحديث عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا ربيعة سلني أعطك».

قال: أسألك مرافقتك في الجنة.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أوَ غيْرَ ذلك».

قال ربيعة: بل هو ذاك.

---

(١) متفق عليه.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» الحديث[1].

وهكذا الإغاثة: فالمغيث على الحقيقة هو الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ ومع ذلك تُنسب الإغاثة للعبد الذي هو واسطة:

قال تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، فقد أغاث موسى الذي استغاثه.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم كما في حديث الشفاعة الذي رواه الخمسة وغيرهم، فقد جاء في رواية البخاري: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتيَ يوم القيامة ليس في وجهه مزعة ـ أي: قطعة ـ لحم».

وهذا جزاء من يسأل وهو غير محتاج، بل عنده ما يكفيه.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأُذُن مِنْ شدة أهوال الموقف وطوله».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «بينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فيشفع، ـ أي: ليقضى بين الخلق ـ فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب ـ أي: باب الجنة ـ فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم» كما في البخاري من كتاب الزكاة.

---

(١) رواه الترمذي وغيره.

فانظر يا أخي لقد استغاث الناس ـ أهل الموقف كلّهم ـ بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأغاثهم؛ بأن شفع عند الله تعالى فيهم ، حتى يخلصوا من أهوال الموقف ، وينتهي الأمر إلى فصل القضاء بينهم .

وقد اقتصر الراوي هنا ذكرَ الرسل الذين يمرُّ عليهم أهل الموقف ، فإنهم كما جاء في أحاديث الشفاعة : يأتون آدم ، ثم نوحاً ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم يأتون السيد الأكرم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم ، ولم يقل أحدٌ من الرسل إنه لا حاجة بكم إلى مَن يغيثكم ، أو يشفع أو يكون لكم وسيلتكم إلى ربكم ، بل أقروهم على سؤالهم الإغاثة والشفاعة ، ولكن أحالوا الأمر لمن خصَّه الله تعالى بمقام الشفاعة العامة صلى الله عليه وآله وسلم .

وجاء في الحديث ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إياكم والجلوس في الطرقات» .

قالوا : يا رسول الله ما لنا بدّ من مجالسنا ، نتحدث فيها .

فقال : «إذا أبيتم إلا المجلس ، فأعطوا الطريق حقه» .

قالوا : وما حقه يا رسول الله؟

قال : «غضّ البصر ، وكفّ الأذى ، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر»(١) .

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم .

وفي رواية: «وتغيثوا الملهوف، وتهدوا الضال».

ومن ذلك النصر: فإنّ النصر هو من عند الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

وقدِ أضاف النصر إلى المخلوق فقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

وروى الترمذي وغيره، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

فقيل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «تحجزه عن الظلم ـ أي: تمنعه عن الظلم ـ فإن ذلك نصره» يعني: أنّك بذلك تنصره على شيطانه ونفسه بمنعك له عن الظلم.

وعن السيدة ميمونة رضي الله عنها ـ أم المؤمنين ـ قالت: بات عندي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة، فقام يتوضأ للصلاة، فسمعته يقول في متوضئه ـ أي: مكان وضوئه صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «لبيك، لبيك، لبيك، ـ ثلاثاً ـ نُصرت، نُصرت، نُصرت».

فلما فرغ، قلت: يا رسول الله، سمعتك تقول في متوضئك: «لبيك لبيك لبيك، نصرت نصرت نصرت» كأنك تُكلم إنساناً، فهل كان معك أحد؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هذا راجز ـ أي: شاعر ـ بني

كعب يستصرخني - أي: يستغيث بي - ويزعم أنّ قريشاً أعانت عليهم بني بكر».

قالت ميمونة رضي الله عنها: فأقمنا ثلاثاً، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصبح بالناس صبح اليوم الثالث، فسمعت الراجز - أي: شاعر بني كعب - يُنشد بعد فراغهم من الصلاة، فيقول أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

يـا رب إنـي نـاشـد محمـداً
حلـف[1] أبينـا وأبيـه الأتلـدا[2]
إنّ قـريشـاً أخلفـوك المـوعـدا
ونقضـوا ميثـاقـك المـؤكـدا
وزعمـوا أن لسـت تـدعـو أحـدا
فـانصـر هـداك الله نصـراً أبـدا
وادع عبـاد الله يـأتـوا مَـددا
فيهـم رسـول الله قـد تجـردا[3]

قالت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غضب مما كان من شأن بني كعب غضباً لم أره غضبه منذ زمان، وقال: «لا نصرني الله تعالى إن لم أنصر بني كعب» كما في رواية أبي يعلى بسند جيد، وقد

---

(١) مناصرة.
(٢) أي: الأقدم، والتليد هو القديم.
(٣) أي: شمّر عن ساعد الجد لحرب العدو.

روى أصل الحديث الطبراني في (معجمه الصغير) وابن إسحاق وغيرهم من أصحاب السِّيَر.

قال الحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى: وفي إخباره صلى الله عليه وآله وسلم بما قاله الراجز قبل قدومه؛ فيه عَلم من أعلام النبوة باهر، فإما أنّه أُعلم بذلك بالوحي، وعلم ما يُصوّره الراجز في نفسه، أو كان الراجز يكلم به أصحابه فأجابه صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، أو أنّه كان يرتجز في سفره وأسمعه الله تعالى كلامه قبل قدومه بثلاث، فقد روى أبو نعيم مرفوعاً: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تُلام أن تئط...» الحديث اهـ.

فكان صلى الله عليه وآله وسلم يسمع تسبيح السماء، وهذه المناشدة كانت سبباً مهيّجاً إلى التعجل في فتح مكة المكرمة.

وقد قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

فاعتبر وفكِّر في قوله سبحانه: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ فهو سبحانه الذي أنبت الزرع، ولكن بسبب الماء الذي هو سبحانه جعله سبباً، وانظر في قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فهو سبحانه المحيي وحده كما قال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ولكن جعل الماء سبباً في الحياة، فلا تنكر الأسباب، فإن الذي جعلها أسباباً هو الله تعالى رب الأرباب، ولا تنكر الوسائل ولا الوسائط التي جعلها الله تعالى وسائل ووسائط.

والله تعالى هو الشافي وحده ، ولا شفاء إلا شفاؤه سبحانه ، ولكن قد يجعل الشفاء منوطاً بأسباب:

قال تعالى في العسل: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وهناك أسباب من الأدوية المركبة والعقاقير:

روى مسلم وغيره ، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ لكل داء دواء ، فإذا أُصيب دواء الداء بَرِىء بإذن الله تعالى» .

وروى البخاري وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أنزل الله تعالى من داءٍ إلا وأنزل له دواء» .

والبحث في هذا الموضوع واسع ، وليس هنا موضع بسطه ، وإنما ذكرت جملةً من الأمور ، لعلَّ الله تعالى ينفع بها ، ويزيل بها شُبهة من يشتبه عليه هذا الموضوع .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾

والحكمة في تقديم العبادة على الاستعانة لها وجوه:

أولاً: هو أنّ العبادة هي حق لله تعالى على عباده ، وأما الاستعانة فهي سؤالهم منه الإعانة ، وهي تَعود إليهم ، وإنّ حق الله تعالى وما هو لله تعالى فإنه مقدَّم على ما هو للعبد ، كما يدل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنّ

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله تعالى: قَسَمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال الله تعالى: مجّدني عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

ثانياً: هي أنّ العبادة تشتمل على أعمال صالحة، وأقوال طيبة، يتقرب العبد بها إلى الله تعالى، ويسترضيه، فيكون من باب تقديم التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة، على سؤال الاستعانة والدعاء بها، وذلك يكون أرجى في قبول الدعاء، وإجابة السؤال، وهذا له نظائر وأشباه كثيرة في الشرع، فإنّ الدعاء عقب العبادة مجاب، وإليه الإشارة في حديث معاذ رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «والله إني لأحبك، فلا تنس» وفي رواية: «أوصيك أن تقول دُبُرَ كلِّ صلاة: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

ودعاء الصائم عند فطره مجاب؛ لأنه بعد عبادة.

ثالثاً: لما وقف العبد مَوقف العابد، والْمُقرّ لله تعالى بأنه هو الإلّه المعبود وحده، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: نعبدك اعتقاداً

وعملاً وقولاً ، ولكن ذلك كله إنّما هو بعونك يا رب ، وتفضلك بالتوفيق ، والعون والتيسير ، فلولا فضلك بالتوفيق والعون والتيسير ما عَبَدْتُك ، فمنك الفضل عليّ ، ولك المنّة أوّلاً وآخراً في الإعانة على العبادة وقبولها ، والثواب عليها.

رابعاً: أنّ العبادة هي قيام العبد بتكاليف الشريعة التي شرعها الله تعالى ، وفيها الأوامر والمناهي ، وهذه هي الأمانة الكبرى التي التزمها الإنسان وحملها، يوم عُرضت على السموات والأرض والجبال فأبَيْن أنْ يحملنها ، وأشفقن منها لثقلها ، وحَمَلها الإنسان ، كما بيّنْتُ ذلك مفصلاً في كتاب (هدي القرآن إلى معرفة الأكوان).

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

فالإنسان الذي حمل تلك الأمانة ، واستعان بالله تعالى على ذلك : أعانه الله تعالى ، وأدى حق العبادة وموجبها ، فإنه خرج عن الظلم والجهل، والكافر الذي لم يفعل ذلك كان ظلوماً جهولاً.

خامساً: إن الله تعالى قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي: لأن في عبادتهم له شرفهم ، وكرامتهم ، وعزهم ، ورفعة شأنهم في الدنيا والآخرة ، فقام العبد المؤمن يُقرُّ بذلك ، ويُشهد الله تعالى على ذلك ، ويناجيه في الصلاة فيقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أي: تحقيقاً للأصل الذي خلقتنا من أجله ، وتطبيقاً للمراد المحبوب الذي أردتَه منّا في خلقك لنا ، فها نحن عبادك نعبدك: حالاً ومآلاً ، ونسألك أن تعيننا على ذلك حتى آخر لحظة ، قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ والمراد باليقين: الموت ،

كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ، وبذلك تتم النعمة ، وتحسن الخاتمة ، ولذلك فإن الله تعالى أمر العبد أن يقول بعد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ اللهم آمين.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾

أي: وفّقنا للسلوك على الصراط المستقيم ، الذي هدانا إليه رسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ودعانا إليه حيث قلت في كتابك مخاطباً له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ ، وقلتَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وهذا الصراط هو دين الإسلام ، الذي جاء يدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الجامع للعقائد الإيمانية ، والأوامر العملية ، وهي العبادات القائمة على أساس الاعتقاد ، والاعتراف بالعبودية لرب العالمين ، فإنّ من اعتقد واعترف أنّه عبد مخلوق بعد أنْ كان معدوماً؛ وجب عليه أن يعبد ربه وخالقه الذي أوجده ، من باب القيام بحق الله تعالى عليه ، كما ورد في الحديث: «أتدري ما حق الله على عباده»؟ أي: ما حق الله تعالى الذي لا ربّ غيره على عباده ، الذين هم لا محالة عباده ، بلا شك ولا ريب ، فإنّهم عباده ، وليسوا أرباب أنفسهم ، ولا ربّ لهم غيره سبحانه.

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «حق الله على عباده أن يَعْبدوه ولا يشركوا به شيئاً. . .»[1] الحديث.

والدليل على أنّ المراد بالصراط هنا هو الإسلام ـ أي: دين الإسلام ـ ما رواه الإمام أحمد وغيره، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ضرب الله تعالى مثلاً، صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط ـ أي: جانبي الصراط ـ سوران ـ تثنية سور وهو الحائط المنيع ـ فيهما أبواب مفتّحة، وعلى الأبواب سُتورٌ مرخاة، وعلى باب الصراط **داع يقول**: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً، ولا تتعوّجوا ـ أي: لا تنحرفوا عن الصراط ـ **وداع يدعو** من فوق ـ أي: الصراط ـ فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه» أي: تدخل فيه.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فالصراط الإسلام، والسوران حُدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله تعالى، والداعي من فوقه واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم» أي: وهو لمّة الملك الذي يدله على الخير، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن للشيطان لَمّة بابن آدم، وللملَكِ لَمّة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لَمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد من ذلك ـ أي: من إيعاد الخير

---

(١) متفق عليه.

وتصديق الحق ـ فليعلم أنّه من الله تعالى ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان» ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾.

واللمة هي : العارض والخطرة التي تقع في القلب ، وتمر بسرعة ، فهناك خطرات وعوارض للقلب ملكية وهي : التي تدلك على الخير وتبعدك عن الوساوس والشر ، وهناك خطرات شيطانية تَرِدُ على القلب فاستعذ بالله منها.

وقال بعض العارفين: واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم ـ الوارد ذكره في هذا الحديث ونحوه ـ هو الواعظ الإلٰهي، بسبب نور الإيمان الذي في قلب المسلم حقاً ، وهذا النور هو من عند الله تعالى ، ومِنْ شأنه أنْ تكون فيه البصائر والبشائر ، والإلْهامات الإلٰهية ، وهذا النور هو المذكور في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية.

وهذا النور هو المذكور في الحديث المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن مسعود رضي الله عنه ، أن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ قالوا: يا رسول الله كيف يشرح صدره؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نور يقذفه في القلب ـ أي: يقذفه الله في القلب ـ فينشرح له الصدر وينفسح».

قالوا: وهل لذلك من أمارة ـ أي: علامة ـ تعرف؟

فقال: «نعم».

قالوا: وما هي؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» رواه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم وغيرهم بروايات متعددة.

وقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ فيه أن موقف العبد، موقف الاستهداء من الله تعالى، وأنّه إن لم يهده فهو ضال عن طريق الحق، الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضال إلا مَنْ هديته فاستهدوني أهدكم».

وهذه الهداية التي علمنا الله تعالى إيّاها هي هداية التوفيق لسلوك الصراط المستقيم، فإن الهداية في القرآن والسنة، تأتي على معان يهمنا أن نذكر منها ما يلي:

النوع الأول: هداية الله تعالى لجميع المخلوقات لما فيه صلاح وجودها، ومصالح عيشها في دنياها؛ وهي عامة للإنس، والجن، والطير، والحيوانات، وجميع ما هنالك، وهذه الهداية هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ المعنى: أنّه سبحانه أعطى كل شيء أبرزه لعالم الخلق الإيجادي، أعطاه وجوده الكوني اللائق به؛ من حيث حقيقته الوجودية، وصورته الكونية المناسبة له، كما هو مقتضى الحكمة الإلهية، من حيث نوعه، وكمه، وكيفه، وزمانه، ومكانه، وجميع شؤونه، وحالاته في كل شيء؛ أحسن الله تعالى خلقه كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾، وكل شيء أتقن الله تعالى صنعه كما قال سبحانه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ فكل شيء هو حَسَنُ الخَلْقِ، ومتقن الصنع بالنسبة لنوعه، فالحمار بالنسبة لكونه

حماراً هكذا ينبغي أن يكون ، والكلب بالنسبة لنوعه وهو الحيوان الكلبي هكذا ينبغي أن يكون ، وهلم جراً ، والله تعالى أعطاه ذلك كله على حسب ما يليق به ، بمقتضى علمه سبحانه السابق القديم ، الذي لا أول له ، المحيط بكل شيء ، وحسب حكمته الشاملة لكل شيء ـ والله تعالى عليم حكيم.

وبقدرته التي لا يُعجزها شيء أَوجد ذلك كله ، ثم هدى ذلك الشيء لما فيه صلاح وجوده وبقائه ، وحياته ، وهداه لمعرفته بربه خالقه ورازقه ، وهداه لمعرفة معاشه وغذائه ، ومطعمه ومشربه ، وهداه لمعرفة ما يضره وما ينفعه من المأكولات والمشروبات ، وهداه لمعرفة من يأتلف معه ، ومن يحذر من شره.

فترى العصفور مثلاً يأتلف مع بني نوعه ونوع الحمام ، ولكنه يفرّ من الغراب ونحوه من سباع الطيور.

وهكذا هدى سبحانه جميع المخلوقات إلى ما فيه نظامها وانتظامها: قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾.

وقد تكلمت بعض الكلام على هذه الآية في كتاب (هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) فارجع إليه.

النوع الثاني من الهداية: هداية البيان والدلالة على كل خير ، وفيها التحذير من كل شرّ ، وهذه هداية المكلفين عامة إلى معرفة الحق من الضلال ، وبيان ما فيه الخير لهم ، وما يعود عليهم بالشر والفساد ، وبيان ما ينفعهم ، ويُصلح أمورهم الخاصَّة والعامَّة؛ في الدنيا والآخرة ، جماعات وفرادى.

وهذه الهداية الإلٓهية هي التي أوجبها الله تعالى على نفسه ، رحمة بعباده بواسطة الرسل صلوات الله تعالى عليهم - وهي وظيفتهم صلوات الله تعالى عليهم - وبها تقوم حجة الله تعالى على العباد في الدنيا ويوم المعاد ، وبها يظهر اختيار المكلف : فإما أن يختار الإيمان الثابت بالبينات والبرهان ، الذي جاء به هذا الهدي البياني ، وإما أنْ يختار الكفر - وهو : ستر الحق بعد ما ظهر له بالهدى والبينات - وبذلك يكون من أهل الردى .

وعلى هذا الاختبار الذي يظهر فيه الاختيار يترتب الثواب : إن اختار واستحب الإيمان والهدى ، ويترتب عليه العقاب : إن اختار الكفر واستحب العمى على الهدى .

وهذه أمور أربعة تتعلق بهداية البيان والدلالة :

الأول : إنّ الله تعالى أوجبها على نفسه رحمة بعباده ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ ، فقد أوجب على نفسه سبحانه أن يهدي العباد - أي : يدلهم على الحق ، ويبين طريق الحق وما يؤدي إليه من الفلاح ، وصلاح الدنيا والآخرة ، كما بيّن طريق الضلال وما يؤدي إليه من الشر والفساد ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ أي : بيّنا له الطريقين الواضحين : طريق الخير وطريق الشر .

روى الطبراني ، عن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «يا أيها الناس إنما هما نجدان - أي : طريقان - نجد خير ، ونجد شر» .

وروى ابن مَرْدُوْيَه وابن أبي حاتم نحو هذا مرفوعاً .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصحّحه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ قال: سبيل الخير والشر.

ومثل ذلك جاء عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً.

ومنذ أهبط الله تعالى بني آدم إلى الأرض ، تعهدهم بهذا الهدي البياني:

قال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

الثاني: أن هذه الهداية الإلّهية التي فيها البيان والدلالة على الحق ، والخير والرشاد ، والتحذير من الضلال والشر والفساد ، هي بواسطة الرسل صلوات الله عليهم ، وبإنزال الكتب الإلّهية.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ الآية.

وقال تعالى لحبيبه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾.

وقال سبحانه مخبراً عن الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلوات والتسليمات قوله لأبيه: ﴿ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾.

وقال تعالى مخبراً عن الكليم عليه الصلاة والسلام ـ لما أرسله الله تعالى إلى فرعون أن يقول له: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾.

والمعنى: أدلك على الطريق الذي يوصلك إلى ربك فتخشاه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾.

فجاءت الرسل صلوات الله عليهم يهدون العباد إلى ربهم، ويدلونهم على طريق الحق الموصل إلى الله تعالى، وذلك بالبيّنات القطعية التي جاؤوا بها، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ الآيات.

فما من رسول إلا وقد جاء قومه بالبينات ـ والبينات جمع بينة، وهي: ما كانت حقاً ظاهرة في نفسها، ومظهرة لحقيّة ما سيقت له.

والبينات التي جاءت بها الرسل كلها قطعية، وهي تشمل الحجج العقلية، والبراهين القاطعة، كما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ الآية.

وتشمل المعجزات المرئية المشهودة، وبهذا تقوم الحجة على العباد.

فالبينات العلمية العقلية تثبت الحق وتدحض الباطل، وتُزيل الشبه والشكوك، والبينات المرئية وهي المعجزات الخارقة للعادات فإنها تشهدك حقيّة ما جاءت به الرسل عياناً.

فكل رسول من الرسل صلوات الله تعالى عليهم أُوتي من البينات؛ وأنزل الله تعالى عليه من الآيات؛ ما فيه الحجة على قومه، بحيث تكون قاطعة دامغة لا تُبقي ريبة لمرتاب، ولا عذراً لمعتذر.

وقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أنواع المعجزات ومجامع البينات، لأن رسالته عامة لجميع الأمم إلى يوم القيامة، وفيها الحجج القاطعة على جميع الطبقات، ولذلك سماه الله تعالى بالبينة:

فقال سبحانه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فهو البينة الجامع لكل بينة، والذي جاء بكل بينة.

وإنّ أعظم معجزاته، وأجمع بيّناته، هو هذا القرآن العظيم، والكتاب المبين، الباقي إلى يوم الدين، بلاغاً عنه صلى الله عليه وآله وسلم، وحجة على جميع العالمين.

قال تعالى لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ الآية.

وروى ابن أبي شيبة، وابن الضريس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي: في معنى قول الله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ قال: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم - أي: فبلّغه -.

وفي لفظ آخر له: من بلغه القرآن حتى يفهمه ويعقله؛ فكأنه عاين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلّمه. اهـ.

وأما أنّ هذا القرآن هو أعظم حجة بالغة باقية إلى يوم القيامة ، تَشهد بصدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته ، فدليل ذلك هو الحديث الذي رواه البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنّما كان الذي أُوتيتهُ وحياً أوحاه الله تعالى إليّ ، فأرجو أنْ أكون أكثرهم تابعاً».

والمعنى: أنّ الله تعالى خصّه بوحي القرآن العظيم المعجز لجميع العالمين ، الباقي حجةً إلى يوم الدين على جميع المكلفين ، فأتباعه هم أكثر من جميع أتباع الرسل قبله ، وقد بينت ذلك مفصلاً في كتاب: (هدي القرآن إلى الحجة والبرهان).

الثالث: إنّ هداية البيان والدلالة هي حجة الله تعالى على العباد في الدنيا ويوم المعاد.

قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

فجاءت رسل الله تعالى يهدون العباد إلى طريق الحق ، والصلاح والفلاح والنجاح ، ويدلونهم على كل خير في الحال والمآل ، ويحذرونهم من كل شر يعود عليهم في الحال والمآل ، وكل ذلك قائم على البينات والأدلة القاطعة الساطعة ، حتى لا يبقى للعباد حجة فيما إذا خالفوا ، ولا يبقى لهم عذر يعتذرون به ، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم وغيره ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

قال: «إنّه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، ويُنذرهم شرّ ما يعلمه لهم، وإنّ أمتكم هذه جُعِلَ عافيتها في أولها، وسيصيب آخِرَها بلاءٌ وأمور تنكرونها، فتجيء فتنة، فَيُرَقِّقُ بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مُهلكتي، ثم تنكشف، ثم تجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه» - أي: مهلكتي -.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فمن أحبَّ أن يُزحزَح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيّته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه».

فجاءت الرسل صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم بهداية البيان والدلالة على كل خير عاجل وآجل، والتحذير من كل شر عاجل وآجل، مع البينات القاطعة، كما قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

فهو سبحانه لا يُعذب في الدنيا ولا في الآخرة مَنْ كفر وجحد، حتى يبعث رسولاً: يقيم الحجة، ويدل على الطريق النيِّرة، والمحجَّة البيضاء.

فلم يعذب في الدنيا عذاب استئصال لمن كفروا؛ إلا بعدما أرسل فيهم رسولاً:

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ

مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ .

فبيَّن الله تعالى أنه لم يأخذ القرى بالعذاب فيهلكهم إلا بعد أن يبعث في أمّها ـ أي: عاصمتها؛ وهي البلد الكبرى التي ترجع إليها القرى في مهام أمورها ـ رسولاً ، فيبلّغهم ، ويبلغ القرى المحيطة بها ، ويتلو عليهم آيات الله تعالى ، فيكفروا ويجحدوا؛ فيستحقون العذاب؛ لأنهم ظالمون لأنفسهم . .

ولما كانت مكة المكرمة هي أم أمهات القرى كلها ، وعاصمة العواصم ، باعتبار أن البلاد ترجع إليها في مَحجّها وصلواتها ، كان من الحكمة أنْ يَبعث صاحب الرسالة العامّة لجميع البلاد منها .

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الآية .

فقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يشمل جميع البلاد ، لأنّ مكة هي في منتصف المعمورة .

ثم إنّ قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ ينبهك أيها العاقل إلى أنّ الرسل يختارهم الله تعالى من المدن المتحضرة ، والبلاد العامرة ، لا من البوادي المهجورة ، ولا من أطراف الحافات المغمورة ، بل يولدون في بلاد عامرة حاضرة ويبعثون منها .

كما أنّه سبحانه لا يعذب في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل ، وإقامة البينات ، وبيان الآيات ، والإتيان بالحجج والمعجزات ـ كما أخبر في الآية عن أهل النار: قال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ

سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: قد جاءتنا رسلنا بالبينات والأدلة وأقاموا الحجج ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ - أي: رجعة إلى الدنيا - ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

فردّ الله تعالى معاذيرهم، وقول أحدهم: لو أن الله هداني - بيَّن طريق الحق والسعادة وسبيل الفلاح - ردّ عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ يعني: أرسلتُ فيكم رسلاً، فهدوكم إلى طريق الحق، وجاؤوكم بالآيات والبينات، ودلوكم على كل خير، وحذروكم من كل شر، ولكن كنتم تسخرون منهم، وتتكبرون عليهم، وتستهزئون بهم.

كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

فكانت الأمم الكافرة تفرح بعلومها الدنيوية ، وتسخر بما جاءت به الرسل من علوم الدين ، وتعاليم الشريعة التي فيها ضمان الحقوق ، وكمال العدل ، وسعادة الدنيا والآخرة ، فجائت شرائع الله تعالى بعلوم فيها عمارة الدنيا والآخرة ، وسعادة الدنيا والآخرة ، ولكن الكفرة إنّما يريدون الدنيا ولا يريدون الآخرة ـ بل لا يؤمنون بالآخرة أصلاً .

ولو أنهم فكروا وتعقلوا ، وتجردوا عن كبرهم ، واتباع أهوائهم وشهواتهم البهيمية المفرطة ، لو فعلوا ذلك لعقلوا ، وعلموا حق العلم أنّ الآخرة هي حق ، وأنّها لا ريب فيها ـ كما أوضحت ذلك مفصلاً في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) .

الرابع من هداية البيان والدلالة الذي هدى الله تعالى بها العباد بواسطة الرسل صلوات الله عليهم ، بها يظهر اختيار العاقل المكلف :

فإما أنْ يختار ويستحب الإيمان، ويمشي على هدىً وبصيرة سوياً على صراط مستقيم؛ حتى ينتهي أمره إلى جنة الخلد ونعيم الأبد .

وإما أنْ يختار ويستحب العمى على الهدى ، فيتخبط في ظلمات الضلال المبين ، حتى ينتهي أمره إلى جهنم وبئس المهاد .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ ـ أي : بيّنا لهم ، ودللناهم على الحق الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة ، مع البيّنات وإيضاح الدلالات ـ ﴿ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ والمعنى

أنّه سبحانه بيّن للإنسان سبيل الحق ، وطريق الخير ، وبصّره به ، وأوضحه له بالبيّنات ؛ كل ذلك بواسطة الرسل صلوات الله عليهم ، وإنزال الكتب الإلٓهية عليهم ، فهنا يظهر اختيار الإنسان:

فإما أن يهتدي ، أي: يسير على طريق الهُدى المنير ، شاكراً لربّه على نعمة الإيمان والإكرام ، ونعم الله تعالى التي لا تحصى.

وإما أنْ يكفر بذلك ظلماً وعلواً ، أو كبراً وطغياناً ، أو فسقاً واستغراقاً في الشهوات البهيمية.

وعلى ذلك يترتب الثواب والعقاب ، ولذا قال سبحانه بعد تلك الآيات:

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ الآيات.

وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾.

والمعنى: قد جئتكم بالحق من ربّكم ، ففكروا في حقيّة ذلك واعقلوه ، فإنّ الحق هو الأمر الموافق للواقع ، ولا يمكن بل لا يجوز للعاقل أن يُنكر الواقع المشهود عقلاً ، كما لا يجوز أن ينكر المشهود بصراً.

فهل يجوز للعاقل أن ينكر ضوء النهار ، ويزعم أنّه ليل مظلم ، فإنه إذا قال ذلك حَكَم الناس عليه بالجنون ، وهكذا فإنّ نور الشرع والحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه نور مشهود لدى العقول والقلوب والأفكار ، فمن أنكره فهو أشد جنوناً ممن ينكر طلوع النهار وضوءه.

ولذلك قال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

فبعد بيان الحق، وظهور النور:

فمن شاء فليؤمن لأنه لا يسعه إلاَّ أن يُصدق بالحق؛ ومن شاء فليكفر ـ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، نظير قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فليس المراد هنا فعل المأمور به، بل المراد التحذير والتهديد بالوعيد الشديد.

والمعنى: فمن يكفر فقد ستر الحق، وأعرض عن النور الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والبيان الذي بيَّنه، إذاً فليعلم أنّ هناك الحساب والعقاب، فإن الله تعالى هو أسرع الحاسبين، وهو أحكم الحاكمين، وهو شديد العقاب.

ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: لأنهم ظلموا أنفسهم، فتركوا الحق الظاهر وكرهوه، ولم يختاروه، واستحبوا العمى، واتبعوا الباطل، ففوّتوا على أنفسهم النعيم الأكبر، وحرموها الخير الكثير، فهم الظالمون لأنفسهم، حيث سلكوا طريق الباطل الموصل إلى جهنم وعذاب الحريق، وأعرضوا عن سلوك طريق الحق الموصل إلى الجنة والنعيم المقيم، فأيّ ظلم أعظم من هذا الظلم لأنفسهم؟!

النوع الثالث من الهداية: هداية التوفيق للعمل بموجب الهدي البياني، الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

وسلوك الصراط المستقيم ، والطريق القويم ، الذي مشى عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ودعا إليه ، ودلّ العباد عليه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإنّ خير الهدي هدي محمد» صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه الهداية هي المعنيَّة في قول الله تعالى ـ يُعَلِّمُ عباده أن يقولوا ـ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، وأن يسألوه سبحانه هدايتهم إلى هذا الصراط المستقيم ، كل يوم وليلة ، في أكمل قرباتهم ، وأفضل عباداتهم وهي : الصلوات الخمس.

فمن نال هذه الهداية يُسمى بالمهتدي ، ولا يملك هذه الهداية ولايقدر عليها إلا الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ .

فهذه الهداية هي التوفيق للعمل بما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم ، وبما هداهم ـ أي: دلَّهم عليه ـ فأثبت له صلى الله عليه وآله وسلم هداية البيان ؛ والدلالة على الصراط المستقيم ، الجامع لكل خير ، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأما التوفيق للسير على هذا الصراط والمشي عليه فهذا إلى الله تعالى ، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

فالله تعالى دعا عباده في القرآن العظيم؛ وعلى لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، دعاهم كلهم إلى دار السلام؛ وهي الجنة ، حتى يستريحوا من دار السَّقام وهي الدنيا ، فجاء صلى الله عليه وآله وسلم داعياً إلى الله السلام ، وإلى داره دار السلام ، ولكن هداية التوفيق من عنده .

قال الله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

والفاسق هو الذي خرج عن منهاج الحق والاعتدال بعدما اتّضح له؛ وسلك طريق الغيّ والضلال .

روى البخاري وغيره ، عن جابر رضي الله عنه قال : (جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو نائم فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : العين نائمة والقلب يقظان .

فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً .

فقالوا : مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مائدةً ، وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي : دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة .

فقالوا : ـ أي : الملائكة ـ أوّلوها يفقهها .

فقال : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فالدار الجنة ، والداعي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فمن أطاع محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقد أطاع الله تعالى ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله تعالى ، ومحمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم فَـرْقٌ بين الناس) .

وفي رواية الترمذي، عن ابن مسعود رضي الله عنه: (فقال الملك: اسمع سمعت أذناك، واعقل عقل قلبك، إنّما مثلك ومثل أمتك: كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مائدة ـ وفي رواية: مأدبة ـ ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رسول ـ أي: الداعي ـ فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل مما فيها).

والسلام في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ **إما المراد به** اسمه تعالى السلام، وأضاف الدار إليه إضافة تشريف وتكريم، كالكعبة فهي بيت الله تعالى، **وإما المراد** بالسلام: السلام منه: أي: تحيته لهم سبحانه، كما قال جلّ وعلا: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾.

وقال تعالى ـ مخبراً عن كثرة سلامه على أهل الجنة ـ: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي: سلام دائم يتوارد عليهم من رب رحيم.

روى ابن ماجه وغيره، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم.

فيقول: السلام عليكم يا أهل الجنة، فيحيّيهم ويحيّيونه، فذلك قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾».

قال: «فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من

النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نور بركته عليهم في ديارهم».

اللهم اجعلنا منهم يا رب يا رحيم.

ومن الملائكة أيضاً قال تعالى: ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

والسلام من بعضهم على بعض قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾.

وفيها السلامة من الآفات والأسقام والأمراض ، فهي دار السلام العام؛ أوّلاً من الله تعالى ، ثم السلام من الملائكة عليهم السلام ، ثم من بعضهم على بعض قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾.

وههنا مسألتان:

الأولى: إذا كانت هداية التوفيق هي من الله تعالى وحده لا يملكها غيره؛ فما هو موقف الضالّ الذي لم تنله هداية التوفيق؛ ما هو موقفه من الجزاء؟

الثانية: المؤمنون مأمورون أن يقولوا في صلواتهم؛ وغير صلواتهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في حين أنهم مهتدون ، فما المقصود من سؤالهم الهداية؟

الجواب عن المسألة الأولى:

إن الله تعالى قد أوجب على نفسه ـ رحمة منه وفضلاً ـ هداية البيان والدلالة كما تقدم ، وذلك بأن يبعث الرسل وينزل الكتب فتبيِّن للناس ، ويهدونهم إلى طريق الحق ، ويدلونهم عليه ،

ويأتونهم بالحجج والبراهين ، والآيات والبينات ، بحيث لا تُبقي لهم عذراً لمعتذر ، كما قال سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ويبقى كل رسول مع أمته مدةً طويلة واسعة من الزمان ، وهو يُحاجّهم ويناظرهم ، ويبيّن لهم ، فبعد البيان والتبيان فهناك يعلمون الحق من الباطل ، ويعرفون ما ينفع وما يضر ، ويفرقون بين الهدى والضلال - يعرفون ذلك كله ، فبعد هذه المعرفة:

منهم من يميل قلبه ويحب اتباع الحق بعد معرفته بذلك ، ويستحسنه فيشرح الله صدره، ويفتح قلبه ، فيُلقي فيه نور الإيمان، فيُقرّ ويعترف ، ويعلن ذلك بالشهادتين معبّراً عمّا في قلبه.

ومنهم من يعرف ولكن لا يعترف ، ويعلم حقيَّة ما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم ولكن يجحد بعدما علم وينكر ، وذلك: إما بسبب كِبر النفس قال تعالى: ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِۚ ﴾ ، وقال تعالى - في قوم فرعون -: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ ﴾ وإما بسبب اتباع أهوائهم وشهواتهم ، فإنها لا تتفق مع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى: ﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ ﴾ أي: كذبوا بالحق الذي جئت به ، وقد علموا أنه الحق ، ولكنه مخالف لأهوائهم الفاسدة ، وما هم عليه من الشهوات البهيمية ، ومن ثَمَّ قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ ﴾.

والمعنى: أنهم إن لم يستجيبوا لك حين تدعوهم إلى الحق ونور الهدى بعدما بان لهم ببيناتك التي جئتهم بها ، فاعلم أنّهم يتبعون أهواءهم لأنهم قوم لا يريدون الحق ، وإنما يمشون وراء أهوائهم

الباطلة ، ولذلك كان شأنهم دائماً بأن يعرضوا ويعارضوا ، ويصرُّوا على كفرهم وبغيهم مراراً وتكراراً ، حتى إذا بلغوا غاية الجحود والعناد ، والظلم والفساد ، طبع الله تعالى على قلوبهم الكفر ـ عقوبـةً لهم من جنس عملهم ـ فهم لا يؤمنون.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ـ أي: الذين ستروا الحق الذي جئتهم به ، وألقوا الحجاب وأصرّوا ، ومردوا على الكفر مع بيانك وتبيانك يا رسول الله ـ ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (٦) خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ عقوبةً لهم، وجزاء على إصرارهم على الكفر ، وإعراضهم عن الحق بعدما عرفوه.

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ أي: متكبر عن قبول الحق بعدما تبين لـه ، كما قال سبحانـه: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ أي: لأنّهم فسقوا فجاوزوا الحدود الشرعية تجاوزاً بعيداً، منكرين ومتكبرين، ومعرضين عنهـا استمـراراً وإصـراراً ، كما قـال سبحانـه: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾.

فهم طُغاة بُغاة ، استحبوا العمى على الهدى ، واختاروا طريق الفساد والغيّ والردى ، فأعطاهم العمى فهم يعمهون.

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ أي:

بيّنا لهم الحق وسبيل الرشاد فأعرضوا ، واستحبوا العمى على الهدى ، وهذا من باب العدل الإلٓهي ، فإنّ هذه العقوبات بالطبع والختم على قلوبهم وما هنالك ، كانت بأسباب جرائمهم الصادرة عنهم باختيارهم ، وإعراضهم ، وتكبرهم عن قبول الحق بعدما تبين لهم ، وإصرارهم على الضلال ، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ فهداهم ـ أي: بين الله تعالى لهم ـ بواسطة الرسل وإنزال الكتب ، وبالآيات والبيّنات ، ومناظرات الرسل لهم ، فبيّن لهم حتى بان لهم نور الحق فأعرضوا ، وبصّرهم نور الحق فتعاموا ، وأسمعهم كلام الحق فتصامّوا؛ فعاقبهم بأن جعلهم صمّاً بكماً عمياً القلوب .

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فقد أقسم سبحانه بالقرآن الحكيم ـ أي: الجامع لأنواع الحكمة ، التي لا تحصى ـ على أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو من المرسلين ، لا يحتمل أمره أنْ يكون شاعراً أو ساحراً أو كاهناً؛ ولا ولا . . . بل هو رسول الله حقاً ، فإنّه قد مضت قبله رسل ثبتت رسالتهم بالبينات والمعجزات ، وإنزال الكتب الإلٓهية عليهم ، وإن كل الشواهد والبراهين والأدلة والآيات والمعجزات التي أثبتت رسالة من قبله ؛ هي كلها مجتمعة لتصديق

سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقد أُوتي من المعجزات وخوارق العادات فوق معجزات الرسل قبله ، وإنّ الكتاب الذي جاء به هو أجمع من الكتب النازلة على الرسل قبله ، وأعظمها ، وقد جاء هذا الكتاب على وجوه من الإعجاز مع التحدي لجميع العالم بأن يأتوا بسورة مثله ، ولذا قال سبحانه: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: لا يحتمل أن يكون هذا الكتاب الحكيم من كلام المخلوقين: الإنس والجن وغيرهما ، بل هو قطعاً تنزيل من الله العزيز الرحيم ، جاء لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم ، ويبين لهم الحق بالحجج والأدلة ، وأوضح لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبيّن لهم ، وحاجّهم ، وناظرهم ، وأقام عليهم الحجة والبراهين القاطعة ، وأراهم أنواعاً من المعجزات المرئية ، ومع ذلك فهم يجحدون ويعرضون ويكذبون ، واستمروا على ما هم عليه ، وأصروا ، وعاندوا ، وعارضوا ، فكانت النتيجة أنْ حق عليهم القول ، وهو قوله تعالى ـ لإبليس ـ: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

فَضُرب الكفر عليهم ، وسدّت عليهم الأبواب عقوبة لهم.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ .

فلما فسقوا وأصروا على كفرهم ، ولم يزدجروا؛ حق عليهم القول بتدميرهم ، فلقد أخذهم بالعذاب المدمّر لهم: بالحق لا بالظلم ، كما قال تعالى ـ في الكفار من الأمم السابقة ـ: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: لأنهم

كفروا ، أي: جحدوا الحق بعدما تبين لهم ، وستروه بعدما عرفوه ، فما ظلمهم الله تعالى ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

فكانت معاقبته سبحانه لهم في الدنيا والآخرة من باب العدل ، لا من باب الظلم ، فإنّ تصرفه في عباده لا ظلم فيه ، ولا جَور ، بل هو على صراط الحق والعدل والحكمة.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فانظر في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: هكذا عادته سبحانه ، ومقتضى حكمته وعدله ، أنْ يجعل هذا الرجس ، وهو الكفر بسبب ضيق الصدر الذي صاروا إليه ؛ يجعله على الذين لا يؤمنون بالحق بعدما تبين لهم ، فكذبوا بالآيات البينات ، ولم يصدقوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا بما جاء به من الآيات القرآنية المعجزة ، ولا بيّناته القاطعة ، بل جحدوا بذلك بعد علمهم أنّها حق من عند الله تعالى ، وأنّ الذي جاء به هو رسول الله حقاً صلى الله عليه وآله وسلم.

كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

والمعنى: أنّهم يعلمون يقيناً أنّك صادق ، وأنّ الآيات التي تتلوها هي ليست من عندك؛ ولا كلام المخلوقين لإعجازها ،

ولكنّهم ظالمون ، فراحوا يجحدون بعد علم ، وينسبونك إلى الكذب وهم على عِلم أنّك الصادق الأمين ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكان ذلك منهم عن كبر وطغيان ، كما قال تعالى ـ عن فرعون وقومه ـ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ أي: لا يصدقون بالحق بعدما ظهر لهم ، بل يجحدون بعد علم ـ في هذا دليل على أنّ الذي هداه الله تعالى ، وشرح صدره قد اختار الإيمان واستحسنه، واستحب الهدى على الضلال والعمى، لما تبين الحق له وآمن ـ أي: صدّق بالآيات والبينات التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فهداه الله تعالى هداية التوفيق ، وثبت ذلك في قلبه ، فشرح الله صدره ووسعه ، وألقى فيه النور الإيماني ، كما قال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ .

فشرح الله تعالى صدر الذي استحب الهدى واختاره ، فملأ سبحانه قلبه نوراً إيمانياً ، بحيث لا يرتد ، وصبغه صبغة إيمانية لا تُمحى قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾ .

ثم قال سبحانه ـ بعدما ذكر المؤمن الذي شرح الله صدره ، وتضييق صدرالكافر الجاحد ـ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ .

وأشار بقوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا﴾ ـ أي: ما تقدم ذكره من شرح صدر ذاك ، وتضييق صدر ذاك ـ ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾ أي: صراط الحق والعدل الإلّهي ، ومقتضى الحكمة الربانية ، فهو سبحانه يدبر أمور عباده ، ويتصرف في ملكه على طريق العدل ،

وصراط الحق، كما هو مُقتضى حكمته الربانية، فإنه العليم الحكيم، لا ظلم ولا جور، بل جميع ذلك على صراط الحق والعدل المستقيم.

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

فلا اعتراض على الحكيم العليم، ولا اعتراض على عدله المستقيم، فهو سبحانه قوله الفصل، وقضاؤه العدل، كما جاء في الحديث: «اللهم إنّي عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أنْ تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري» - وفي رواية: «ونور بصري» - وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي»[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

فلما عرفوا الحق استجابوا له، وقالوا: ربّنا آمنا، فعملوا بموجبِ ما عرفوا وسألوا الله تعالى أنْ يَكْتُبهم مع الشاهدين، وهم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذين يشهدون على من قبلهم من الأمم.

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ

(١) كما في الترمذي والمسند.

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ .

فهذا موقف المؤمنين الأخيار مع كتاب الله تعالى .

ثم أخبر سبحانه بعد ذلك عن الذين كفروا ـ أي: ستروا ـ وجحدوا الحق بعدما تبين لهم ، وعرفوه واتضح لهم ، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ .

فهذا موقف الكفار والأشرار مع آيات الله تعالى .

اللهم اجعلنا من ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ .

فالله تعالى في جميع تدبيره وتصرفه بمخلوقاته: خفضهم ورفعهم ، وإعزازهم وإذلالهم ، وإماتتهم وإحيائهم ، وفي جميع معاملاته مع عباده هو في ذلك كله على صراط مستقيم ، وهو صراط الحكمة الربانية والعدل الإلّهي ، فإنّه العليم الخبير بعباده ، علماً قديماً أزلياً لا أول له ، ومحيطاً لا نهاية له ، فهو العليم بمواقع الفضل الإيماني وأهله ، قال تعالى ـ في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ .

فهو سبحانه العليم الحكيم ، والحكمة تقتضي وضع الأمور في مواضعها اللائقة فيها:

قال تعالى: ﴿ وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ فهو سبحانه يضع فضله موضعه .

وقال تعالى ـ في الكفار ـ: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ فهم ينفرون من سماع القرآن والإيمان ، وتضيق صدورهم ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ ويستحبون ويختارون العمى على الهدى ، وتنشرح صدورهم للكفر ، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: الذين جاءهم الحق واتضح لهم بالبينات حتى بان لهم الحق وظهر لهم وعرفوه ، ولكنهم جحدوا به بعد علم ، ولم يقروا ، ولم يعترفوا بل أخفوه وستروه ، ولذلك سماهم الله تعالى كفاراً ، والكفر هو: ستر الحق بعدما وضح ، ولذلك قال تعالى فيهم إذا جاءت القيامة: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ الآية.

فرتب جميع ذلك على اختيارهم الضلال ، واستحسانهم له ، ومحبتهم إيّاه ، وكراهيتهم للهدى والإيمان بعدما ظهر لهم بالحجة والبرهان ، فعوقبوا بالطبع على القلوب والسمع والأبصار ـ والعياذ بالله تعالى من ذلك كله.

فالله تعالى كما قال: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ، فهو الرب سبحانه ، والكل عباده ، وهو في تصرفه بعباده على صراط مستقيم ، قال تعالى ـ مخبراً عن هود عليه السلام ـ: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: الحكمة البالغة والعدل القويم ، ويسمى هذا صراط الربوبية وهو صراط الحق والحكمة الإلّهية ، التي يدبر بها أمور الخلائق ،

ويتصرف فيهم ، وأما الصراط في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ فهو صراط الإسلام لله تعالى ، والعبودية له تعالى.

وفي الحديث: «اللهم أَنْت ربي لا إلَه إلاّ أنت عليك توكلت وأَنْت ربُّ العرش العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعْلم أنّ الله على كل شيء قدير ، وأنّ الله قَد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

اللهم إنِّي أعوذ بك من شرّ نفسي ، ومن شرّ كل دابّةٍ أنت آخذ بناصيتها إنّ ربي على صراط مستقيم».

فإنْ قيل: إنّ مشيئة العبد واختياره الأمور التكليفية والقيام بها ، أو عدم اختياره لها وقيامه بها ـ هذا الاختيار هو بخلق الله تعالى ومشيئة الله تعالى ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ إذاً فمشيئة العبد واختياره ليس لذلك أثر ولا اعتبار.

فالجواب: نعم إنّ مشيئة العبد واختياره وأفعاله كلها مخلوقة ، خلقها الله تعالى ، ولكن لا يلزم من كون ذلك بمشيئة الله تعالى ، وكون الشيء مخلوقاً له تعالى: لا يلزم من ذلك أنْ لا يكون له أثر في الوجود ، ولا حكم له في الواقع ، ولا يترتب عليه ثواب أو عقاب ، فإنّ الاختيار والمشيئة هما من صفات العبد التي خلقها الله تعالى فيه ، كالحياة والسمع والبصر ، والقدرة والكلام ، والعلم والعقل ، فإنَّ جميع ذلك هو بخلق الله تعالى ومشيئته سبحانه ، ولكن لها أثرها في الوجود ، ولها اعتبار وحكم في الواقع ، ويترتب عليها حقوق وواجبات ومسؤوليات.

فالإنسان حيّ بخلق الله تعالى فيه الحياة، فالله تعالى هو المحيي، والعبد حيّ ، وحياته لها أثرها في الرواح والمجيء ، والحركات

والسكنات ، والأقوال والأعمال ، وهو حيٌّ حقيقة بحياة مخلوقة فيه ، لا وهماً ولا خيالاً ـ بدليل أنّ هناك ميتاً ليس فيه حياة.

وهكذا العبد يسمع بالسمع الذي خلقه الله تعالى فيه ، وبمشيئة الله تعالى ، ويبصر كذلك حقيقة ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: حقيقةً لكن بخلقه سبحانه ومشيئته ، ويترتب على سمعه وبصره آثار وأحكام ـ بدليل أنّ من خُلق لا يسمع ولا يُبصر فقد سقطت عنه التكاليف والأحكام الشرعية.

وهكذا خلق الله تعالى الاختيار ، فالعبد مختار حقيقة ، ويترتب على اختياره آثار وأحكام ، وحقوق وواجبات ومسؤوليات.

فإنْ عَطَّلْت صفة الاختيار ، وزعمت أن لا اختيار له ولا مشيئة ـ لأنّهما بخلق الله تعالى ومشيئته ـ فيلزمك أنْ تعطّل بقيّة صفات الإنسان ، فهو ليس بحيّ ـ في زعم المنكر للاختيار ـ ولا سميع ولا بصير ، ولا قوي ولا عاقل ولا ولا... وهذا مخالف للواقع والعقل والشرع والفطرة.

وإن أردت زيادة تفصيل في الجواب فارجع إلى كتابنا: (هدي القرآن الكريم إلى معرفة الأكوان) ، فالبحث فيه مفصّل ، وفي كتابنا : (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) أيضاً مفصّل ، وخذ هذه الجملة الموجزة: وذلك أنّ الله تعالى نسب للإنسان الأعمال والأفعال ، والكسب والصنع ، والصدق والكذب ، والعمل الحسن والسيء؛ وكذا وكذا من الأفعال ، وأنت تعلم أنّ الله يقول الحق ـ والحق هو : مطابقة الواقع حقيقةً ، والله يقول الصدق ، كما أخبر سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ والصدق هو : موافقة

الأمر الواقع كما هو ، إذن لولا أنّ تلك الأمور صادرة باختيارهم لما نسبها إليهم.

فإنّ الرجل إذا دخل داراً باختياره يقال عنه: دخل الدار ، وإن حُمل حَملاً وأُدخل فيها يقال: أُدخل ؛ ولا يقال: دخلها ـ فافهم. . .

وأما الجواب عن المسألة الثانية: وهي سؤال المؤمن الهداية فيقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ مع أنه من المهتدين:

فقد اختلف علماء السلف الصالح رضي الله عنهم في الجواب:

فقال كثير منهم: إنّ هذا السؤال محمول على الثبات والدوام على الهداية ، فإنّ العبد مفتقر إلى ربّه في كل لمحة في تثبيته على هداية الإيمان ، والاستمرار والثبات عليها ، وهو أحوج ما يكون إلى ذلك ، ومن ثَمَّ أمر الله تعالى العبد المؤمن في صلواته أن يسأل الله تعالى ذلك فيقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ وهنا جاء الجواب من الحق سبحانه: «ولعبدي ما سأل».

اللهم ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ آمين ـ فاستجب لنا يا مولانا ، لأنك وعدتنا بقولك : «ولعبدي ما سأل» وأنت لا تخلف الميعاد.

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾.

وكان سيدنا الصدّيق الأكبر رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة في صلاة المغرب بعد الفاتحة سرّاً ـ وقد اعتبر بعض الفقهاء ذلك من باب القنوت.

ومن العبر: أنه اجتمع رجلان: مسلم وكافر، فاستحسن الكافر الإسلام وأحبّه، فقال: أشهد أنْ لا إلّه إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما المسلم فإنّه استحسن الكفر وأحبّه، وصرّح بكفره، ثم ماتا قبل افتراقهما، فهذا الذي كان كافراً فأسلم صار إلى الجنة، وذاك الذي كان مسلماً فكفر صار إلى النار، وكان ذلك كله في ساعة واحدة، هذا نزل إلى أسفل سافلين، وهذا ارتفع إلى عليين.

فاعتبروا يا أولي الأبصار، ولا تغتروا في هذه الدار، وطول الأعمار.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ ـ فافهم وتبصّر، ففي لحظة واحدة قد ترتفع، وقد تنخفض، والله تعالى هو الخافض الرافع، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى: «يخفض القسط ويرفعه».

وقد ذهب كثير من علماء السلف الصالح إلى أنّ سؤال الهداية في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ محمول على سؤال زيادة الهداية.

قالوا: وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾.

ويدخل القول الأول في سؤال الزيادة، فإن سؤال زيادة الهداية يستلزم تثبيت الأصل والزيادة عليه، فقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: زدنا هدىً فوق الهدى الذي تفضلت به علينا.

قال تعالى ـ في أصحاب الكهف ـ: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه: «قل: اللهم اهدني وسدّدني؛ واذكر في الهداية هدايتك الطريق، وفي التسديد تسديدك السهم»[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا الحسن عليه السلام: «قل: اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولّني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يُقضى عليك، وإنه لا يذلّ من واليت، ولا يعزّ من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، فلك الحمد على ما قضيت، أستغفرك اللهم وأتوب إليك»[2].

ولما كان الصراط المستقيم هو الإسلام ـ أي: دين الإسلام ـ كما ذكره صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتقدم، **والإسلام إذا أُفرِد ذِكره** في آية أو حديث فإنّه يعم الاستسلام الاعتقادي، والاستسلام العملي، والاستسلام القولي، لأنه بمعنى الدين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ **وإذا اقترن بذكر الإيمان** كما في حديث جبريل عليه السلام فيراد بالإسلام الأعمال الظاهرة، والأقوال الظاهرة، وبالإيمان العقائد الإيمانية القلبية.

فالإسلام هو الصراط المستقيم كما جاء في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، الذي تقدم ص/١٢٩/، فهو يشمل قضايا الإيمان الاعتقادية، وأمور الإسلام العملية كلها.

---

(١) أخرجه مسلم، وأبو داود والنسائي.

(٢) رواه الحاكم في (المستدرك).

وإذا **أُطلق الإيمان وأُفرد بالذكر** فإنّه يشمل التصديق القلبي. وهو العقائد الإيمانية، والتصديق العملي، والتصديق القولي، فيكون مفهوم الإسلام والإيمان عند إطلاقهما وإفرادهما بالذكر ـ مفهومهما سواء، ويدل على ذلك آية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

فالإيمان في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ يشمل الإيمان الاعتقادي القلبي، والإيمان العملي: كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك من تكاليف الشريعة، ويشمل الإيمان القولي، ويشمل العقائد القلبية، والأعمال الظاهرة والأقوال.

والدليل على ذلك أنّه سبحانه قابل هذا الإيمان بأمور ثلاثة: فقال: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾.

فالمراد بالكفر الكفر الاعتقادي، وهو إنكار ما يجب الاعتقاد به.

والمراد بالفسوق هنا الفسوق القولي كما جاء في الحديث[1]: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

وأما العصيان فهو ترك الأوامر، والوقوع في المناهي؛ وهي أمور عملية.

وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق؛ والحياء شعبة من الإيمان».

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، والإمام أحمد في (مسنده).

فأطلق الإيمان على أمور الدين الإسلامي كلّها: الاعتقادية والعملية والقولية.

فالإسلام والإيمان مدلولها واحد عند إفرادهما بالذكر كما بينت ذلك فيما سبق.

وقد فسر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بأنه الإسلام، كما تقدم في الحديث أنّ الله تعالى ضَرب مثلاً صراطاً مستقيماً، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فالصراط هو الإسلام» أي: دين الإسلام.

ولما كان الصراط المستقيم هو الإسلام كما دلَّ عليه الحديث السابق، فهو يشمل قضايا الإيمان: الاعتقادية والعملية والقولية.

والإيمان له شعب متعددة، والعبد المؤمن مأمور أن يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فإن كان ممن لم تكمل له شعب الإيمان فهو يسأل هداية التوفيق لتمامها، وإنْ كان ممن تمّتْ له تلك الشعب فهو يطلب زيادة الهداية لكمالها، وإن حصل على كمالها فهو يطلب زيادة الهداية لكمال كمالها، والترقي في درجاتها، وإنْ كان ممن حصل له ذلك؛ فهو يطلب الترقي في مراتبها الإحسانية والرضوانية، وزيادةً في رفعة درجات الحبّ والقرب، والمعارف الإلٰهية، وأمور لا حدّ لها ولا انتهاء، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ مع أنّ هذا الخطاب للمؤمنين.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

فهذه هداية المحسنين وهم المقربون ، فزادهم هدياً إلى هدى ، وقرباً بعد قرب .

فالهداية الخاصة على مراتب ، وليس لمراتبها حد .

وهناك هدي النبوة ، وهو أكمل وأفضل من ذلك كله ، وأسمى وأعلى ، وذاك الهدي خصّ الله تعالى به الأنبياء على نبيّنا وعليهم الصلاة والسلام ـ لا يناله غيرهم .

قال تعالى ـ لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقال تعالى ـ مُخبراً عن خليله على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقال تعالى ـ مُخبراً عن كليمه على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

ثم قال سبحانه ـ بعد ذلك ـ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾.

فجمع جميع أنواع الهدي النبوي للخليفة الأعظم الجامع، والإمام الشافع صلى الله عليه وآله وسلم الجامع والفاتح، والخاتم للنبوات والرسالات الإلٰهية؛ سيدنا وحبيبنا وروح أرواحنا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلينا معهم أجمعين، وزاده الله تعالى هدياً فوق هديهم، وهو الهدي المحمدي الخاص، ولم يزل ولا يزال يترقىٰ مراتب الهداية الخاصّة به.

ومن دعائه صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في حديث التوجه في الصلاة: «اللهم اهدني لأحسن الأعمال، وأحسن الأخلاق؛ لا يهدي لأحسنها إلا أنت» الحديث.

مع أنّه قد ارتقى أعلى مقامات حسن الأخلاق، وعلا ذروتها، بنص قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وأَزلف أعلى مراتب حسن الأعمال وأفضلها وأكملها بنص قوله ﷺ: «إنّي لأتقاكم لله وأعلمكم به».

وفي رواية «إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية».

ومن دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اهدني، ويسّر لي الهدى».

فالهداية على مراتب ولا حدّ لها ولا انتهاء.

قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًىۗ ﴾ أي: هدىً فوق هدى، وهكذا دواليك، كل مهتد على حسب مقامه ورتبته، فيزيدهم سبحانه هدىً.

فدخل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ جميع أصناف المهتدين، على اختلاف مراتبهم ـ فافهم ذلك، واعلم أنّ كل ذلك من باب الفضل والمنة، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

اللهم رب آتِ نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها فإنك قلت: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

وهو فضله يضعه حيث يشاء، قال تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾.

وقد أمر عباده أن يسألوه من فضله قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾.

وما أحسن هذه الأبيات التي أنشدها شارح (منازل السائرين) العلامة العارف سعد الدين أبو محمد عبد المعطي ابن أبي الثناء محمود بن عبد المعطي اللخمي الإسكندري حيث قال في آخر شرحه بعد الكلام على المقامات؛ فالله يبلغنا هذه الأحوال، ولا يجعل حظنا منها المقال:

ما وحَّد الواحدَ من واحد
حقاً فغاب الخلق عن ذكره

إلاَّ بفضلٍ من لدن واهبٍ
يَعجز كلُّ الخلق عن شكره

فكن فقيراً وقتَ إفضاله
تَنل جميل الخير من بِرِّه

ولا ترى نفسك فيما ترى
يحجُبك المنعم عن سِرِّه اهـ

أي: فكن في حالٍ وأنت لا ترى ذلك من جدّ نفسك ، أو تحصيلها بكسبك ، بل هي من فضل ربك سبحانه ، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

اللهم ربّ آتِ نفسي تقواها وزكّها أنت خير مَنْ زكّاها ، أنت وليُّها ومَولاها ـ آمين.

فالصراط المستقيم هو دين الإسلام كما تبين في الحديث المتقدم: «إن الله تعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً. . .» الحديث ، والدين يشتمل على الأوامر وعلى المناهي ، فالسير على الصراط المستقيم يطالَب الماشي عليه بأوامر يجب عليه أن يقوم بها ، ويطبقها ، فإن معالمها منصوبة على متن الصراط المستقيم ، وأن يجتنب المحرمات والمنهيات ، فلذلك بيَّن في الحديث أنّ على جنبي الصراط المستقيم المحارم والمخالفات ، فمن انحرف عن الصراط المستقيم فقد وقع في تلك المحرمات التي هي على جانبي الصراط ، وأمّا المأمورات الشرعية فهي على متن الصراط ، فالسالك على الصراط المستقيم يمر على مواقف ومعالم كمعالم الطريق ، تطالبه بأعمال وأوامر إلٰهية ، وأقوال شرعية ، وأخلاق حسنة ، وآداب عالية؛ متبعاً بذلك كله إمام الهداة والمهتدين ، وسيد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين وعلينا معهم ـ آمين.

وتلك الأوامر لها أعلام وإشارات على متن الصراط ، كما جاء

في الحديث[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن للإسلام صُوى ومناراً كمنار الطريق» والصوى هي: الأعلام المنصوبة على الطريق ، جمع صُوَّة كقوَّة ، تُوَجِّهُ الماشي للسير والعمل بمقتضاها.

فالسالك على الصراط هو مأمور بتطبيقها حتى يمشي سوياً على صراط مستقيم ، ويمرَّ على عقبات ـ أي: مصاعب يجب عليه أن يقتحمها ، ويتابع السير على الصراط مستعيناً بالله تعالى ، فلا بد: له من قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ و﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، وبذلك تسهل عليه تلك المصاعب ، ويمشي بيسر كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإنه ليسيرٌ على مَنْ يسّره الله عليه».

فالصراط هو الدين ، وهو يشتمل على أمور اعتقادية إيمانية ، وأمور عملية ، وأمور قولية ، وأحوال قلبية إحسانية؛ كما فسّره حديث النواس ، وكما جاء في حديث جبريل عليه السلام فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وأجابه صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أتاكم جبريل يعلمكم دينكم».

فذلك كله من الدين ، وهذه الأوامر كلها يقال لها: شعب الإيمان.

وفي الحديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة».

---

(١) رواه الحاكم كما في (الجامع الصغير) ورمز إلى صحته ، وجاء في رواية الطبراني ، عن أبي الدرداء مرفوعاً: «إنَّ للإسلام صُوى وعلامات كمنار الطريق ، ورأسه وجماعه ـ مجمعه ـ: شهادة أن لا إلَه إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإتمام الوضوء».

روى الإمام مسلم ، وأصحاب السنن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان».

وجاء في رواية البخاري: «بضع وستون شعبة» ، ولكن أكثر روايات هذا الحديث عند غير البخاري: «بضع وسبعون».

وقد اتفق علماء الحديث ، الذين بحثوا في بيان تلك الشعب ، فاتفقوا على أكثرها ، واختلفوا في تعيين بعضها اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ ، فإنّ كل ما ذكروه مما اختلفوا في حدّه وتبيينه ، كل ذلك هو من فروع شجرة الإيمان ، ومن شعبها ، والبحث في بيان تلك الشعب ، ونقُول أقوال العلماء فيها مفصلاً يحتاج إلى كتاب مستقل ـ وقد صنف العلماء في ذلك كتباً ـ ولكن أذْكُرها الآن بهذه المناسبة مجملة دون شرح وتفصيل ، على الوجه الذي ذكره العلامة الشيخ زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى ونفعنا به وبجميع العلماء العاملين ، فقد ذكر في شرحه: (تحفة الباري) عند شرحه للحديث ما حاصله:

إنّ الشعب جمع: شُعبة ، هي في الأصل ـ في وضع اللغة ـ غُصن الشجرة ، فشبه الإيمان بشجرة ذات أغصان وشعب كثيرة.

قلت: وهذا الحديث بيان لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

فالكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله ، ثابتة في أرض قلب المؤمن ،

ومتمكنة فيه ، ولها شعب كثيرة متفرعة عنها ، فهي كمثل شجرة طيبة وهي النخلة ـ كما جاء ذلك في الصحيح ـ فإن أصلها ثابت في الأرض وراسخ فيها ، وفرعها يعلو في السماء ، وهي تؤتي أُكلها وثمراتها كل حين، وفي كل الأوقات لا ينقطع خيرها ما بين رُطب، وتمر ناضج ، وتمر يابس ، وعجوة: وأنواعها متعددة ، وهكذا ثمرات الإيمان العملية والقولية والأدبية والخُلقية المرضية ، فإنّها تعلو في السماء ترفعها الملائكة ، قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ الآية ، كما فصلت ذلك في كتاب (الصعود) ، فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة» فيه بيان الآية الكريمة، وأنّ الإيمان له شعب كبيرة، وهي شعب كثيرة ، كما شبه صلى الله عليه وآله وسلم الإسلام ببيت ذي عمد في حديث: «بني الإسلام على خمس» ، والمراد بالإيمان في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة» الإيمان الكامل ، والإيمان الكامل هو : تصديق بالْجَنان ـ أي: القلب ـ وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ـ أي: الجوارح ـ.

قال رحمه الله تعالى: فهذا الإيمان الكامل يشتمل على شعب ، ترجع إلى ثلاثة أنواع: قلبية ، وقولية ، وعملية.

فالأول: وهي الاعتقادية الراجعة إلى أعمال القلوب ، تتشعب إلى ثلاثين شعبة:

١ ـ الإيمان بالله تعالى أي: بوجوب وجوده ، ووحدانيته في ذاته وصفاته ، واعتقاد حدوث ما سواه.

قال عبد الله: والإيمان الاعتقادي بجميع شُعبه لا يصح حتى يكون تصديقاً جازماً ، بحيث لا يدخله شكّ ولا ارتياب ، قال

الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ .

٢ ـ والإيمان بالملائكة عليهم السلام .

٣ ـ والإيمان بكتبه .

٤ ـ والإيمان برسله عليهم الصلاة والسلام .

٥ ـ والإيمان بالقدر خيره وشره .

٦ ـ والإيمان باليوم الآخر .

٧ ـ والإيمان بوعده الجنة والخلود فيها .

٨ ـ والإيمان بوعيده النار وعذابها .

٩ ـ محبة الله تعالى .

١٠ ـ محبة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

١١ ـ والحب في الله تعالى لكل من يحبه الله ، وما يحبه الله تعالى .

١٢ ـ والبغض في الله تعالى لكل من يبغضه الله ، وما يبغضه الله تعالى .

١٣ ـ والإخلاص لله تعالى .

١٤ ـ والتوبة إلى الله تعالى .

١٥ ـ والخوف من الله تعالى ، ورجاء رحمة الله وفضله .

١٦ ـ وترك اليأس .

١٧ ـ وترك القنوط .

١٨ ـ والشكر .

١٩ ـ والوفاء بالعهد .

٢٠ ـ والصبر .

٢١ ـ والتواضع للمؤمنين .

٢٢ ـ والرحمة لخلق الله تعالى .

٢٣ ـ والرضا بالقضاء.

٢٤ ـ والتوكل على الله تعالى.

٢٥ ـ وترك العُجْب.

٢٦ ـ وترك الحسد.

٢٧ ـ وترك الحقد.

٢٨ ـ وترك الغضب.

٢٩ ـ وترك الغش.

٣٠ ـ وترك حب الدنيا.

والنوع الثاني وهو ما يتعلق بالأقوال: وهو يتشعب إلى سبع شعب:

١ ـ التلفظ بكلمة التوحيد أي: الشهادة: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ ـ تلاوة القرآن الكريم.

٣ ـ تعلم العلم.

٤ ـ تعليم العلم.

٥ ـ الدعاء.

٦ ـ ذكر الله تعالى بالأذكار الواردة.

٧ ـ اجتناب اللغو.

النوع الثالث: وهو ما يرجع إلى الأعمال البدنية: وهو يتشعب إلى أربعين شعبة، وهي على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: ما يختص بالأعيان ـ أي: يتعلق بذات الإنسان المكلف، وهو ست عشرة شعبة:

١ ـ التطهر.

٢ ـ ستر العورة.

٣ ـ إقامة الصلاة.

٤ ـ إيتاء الزكاة.

٥ ـ الصوم.
٦ ـ الحج.
٧ ـ الوفاء بالنذر.
٨ ـ الاعتكاف.
٩ ـ ذبح الضحايا.
١٠ ـ الجود.
١١ ـ فكّ الرقاب.
١٢ ـ الصدق في المعاملات.
١٣ ـ الشهادة بالحق.
١٤ ـ الفرار بالدِّين من الفتن.

الصنف الثاني: ما يتعلق بعباد الله تعالى الذين لهم به صلة، وهي ست شعب:

١ ـ بر الوالدين.
٢ ـ التعفف بالنكاح.
٣ ـ القيام بحقوق العيال.
٤ ـ تربية الأولاد.
٥ ـ صلة الرحم.
٦ ـ طاعة أولي الأمر.

الصنف الثالث: الحقوق التي تتعلق بعامة العباد، على حسب اختلاف مقتضيات حقوقهم، وهي ثماني عشرة شعبة:

١ ـ الحياء بأنواعه.
٢ ـ الإصلاح بين الناس.
٣ ـ المعاونة على البر والتقوى.
٤ ـ الأمر بالمعروف.
٥ ـ النهي عن المنكر.
٦ ـ الجهاد في سبيل الله تعالى.
٧ ـ إقامة الحدود.
٨ ـ أداء الأمانة.
٩ ـ إكرام الجار.
١٠ ـ حسن المعاملة في الأمور المالية وغيرها.

١١ ـ حسن الْخُلق مع جميع الْخَلق.
١٢ ـ إنفاق المال على الوجه الذي شرعه الله تعالى.
١٣ ـ البدء بالسلام.
١٤ ـ ردّ السلام.
١٥ ـ تشميت العاطس.
١٦ ـ كفّ الضرر عن الناس.
١٧ ـ اجتناب اللهو واللعب.
١٨ ـ إماطة الأذى عن الطريق.

قال الشيخ زكريا رحمه الله تعالى ـ بعدما عدّ تلك الشعب ـ: فهذه سبع وسبعون شعبة. اهـ.

قال عبد الله: وتفسير البضع في هذا الحديث بالسبع قد جرى عليه المحققون من العلماء العارفين، ومَن تأمل شُعَبَ الإيمان علم أنّه ـ الإيمان ـ قد جمع كل خير وبـرّ، وسعادة وصلاح ونجاح في الدنيـا والآخـرة، فـإنّ هـذه الشعب منهـا شُعَبٌ اعتقاديـة، منهـا عملية، ومنها قولية، ومنها خُلُقية، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «والحياء شعبة من الإيمان»، فالحياء، والخلق الحسن، والمعاملة الحسنة، والمعاشرة الحسنة كل ذلك من الإيمان، وله اعتباره في الميزان، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حسن، وإنّ الله تعالى ليُبغض الفاحش البذيء» ـ أي: سيء الْخُلق ـ رواه أبو داود والترمذي.

وفي رواية الترمذي: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإنّ صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة» أي: يبلغ درجة صائم النهار وقائم الليل.

كما في رواية الحاكم والطبراني: «إنّ المؤمن لَيُدْرك بحسن خلقه درجات قائم الليل وصائم النهار».

فضعيف العبادة حَسن الخلق أفضل عند الله تعالى من كثير العبادة لكنه سيء الْخُلق ، بذيء اللسان.

فقد روى الطبراني بسند رواته ثقات ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وشرف المنازل ؛ وإنّه لضعيف العبادة ، وإنّه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم».

وإذا كان المؤمن كثير العبادة حسن الخلق فنعمّا هو.

فَحُسْن الخُلق ، والمعاشرة ، والمجاورة ، والمعاملة ، والمجالسة ، والمقابلة كل ذلك من الإيمان.

كما أن شعب الإيمان تشتمل على جميع الحقوق الأدبية: الفردية والاجتماعية ، وحقوق الوالدين والأولاد ، والزوجة ، والأقارب والأرحام ، وحقوق الطريق: من السلام وردّه ، وهداية الضال ، ونظافة الطريق ؛ فإن من شعب الإيمان النظافة بأنواعها: نظافة البدن والثياب ، والبيت وغير ذلك.

روى الترمذي وحسّنه ، عن سعد رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ الله تعالى طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم - ساحات دوركم - ولا تشبّهوا باليهود».

فمن تمت له هذه الشعب، ووفقه الله تعالى إلى تطبيقها، والتحقق بها ، فهو المؤمن الكامل الإيمان ، وهو لا يزال مأموراً أن يقول:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ليحصل له ذلك على وجه الكمال بعد التمام ، فإذا كمل له ذلك فهو يسأل الهداية أيضاً إلى كمال الكمال فيها ، فإذا حصل له كمال الكمال بلغ درجة الصالحين الكُمّل ، المذكورين في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

فإذا بلغ كمال درجة الصالحين الكمّل ، فهو يسأل الهداية ليرتقي إلى مقام الشهداء ، وهو على مراتب ، ومن مراتب مقام الشهادة القتل في سبيل الله تعالى ؛ لإعلاء كلمة الله تعالى ، وفوق مقام الشهادة مقام الصديقية ، وهي على مراتب ودرجات ، فليس جميع الصديقين في مقام سيدنا الصديق الأكبر رضي الله عنه ، فهو الوفي الفاني في حبه وودّه للسيد المختار الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي صاحبه في الغار ولم يفارقه : لا في هذه الدار ولا في تلك الدار .

فالعبد مأمور أن يسأل الهداية ، ويقول : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ فكلما ارتقى رتبة في هداية التوفيق تطلّع إلى ما هو أعلى منها ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ .

فالمحسنون هم المقربون ، **فإنهم جاهدوا في الله** : **جاهدوا** أولاً أنفسهم الأمارة حتى أوقفوها عند حدود الله تعالى ، وعما حرم الله تعالى ، **وجاهدوها** حتى حملوها على امتثال أوامر الله تعالى ، **وجاهدوها** حتى سلكوا بها طُرُق القرب إلى الله تعالى من النوافل والعبادات ، والصيام والقيام ، وصفاء السريرة ، وسلامة الصدر ، وإبعاد النفس عن الحسد والحقد ، وعن حمل الغلّ على المؤمنين

ـ وإلى ما هناك من أمراض القلوب وعلل النفوس وآفاتها.

ومن المعلوم أن جهاد النفس هو جهاد شاق أكبر وأصعب من جهاد العدوِّ الخارجي:

روى الترمذي، وابن حبان، عن فَضالة بن عبيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «المجاهد من جاهد نفسه في الله...».

فإن للنفس أعواناً ودواعي سوء الهوى الفاسد، والشيطان المارد، وزخارف الدنيا الشاغلة عن الآخرة.

ويرحم الله القائل:

إنـي ابتليـت بـأربـع يـرمينني
بـالسهـم عـن قـوس لهـا تـوتيـر
إبليـس والـدنيـا ونفسـي والهـوى
يـا ربِّ أنـت علـى الخـلاص قـديـر

كما أنّهم **جاهدوا** في الله تعالى أعداء الله تعالى، وأعداء رسوله صلى الله عليه وآله وسلم **بالحجة والبرهان**، **أو بالسيف والسِّنان**.

فالأول: كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ ـ أي: بالقرآن الكريم وحججه ـ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾، فسمى سبحانه هذا النوع جهاداً كبيراً.

والثاني: كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد جاءت آيات وأحاديث كثيرة في فضل القتال في سبيل الله تعالى، وفي فضل القَتْل في سبيل الله تعالى ـ كما هو مفصل في موضعه.

فجميع أنواع الجهاد هي داخلة في عموم قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ .

فكان جزاؤهم أنْ هداهم سبحانه سبله الخاصة: سبيل المعرفة بالله تعالى؛ المعرفة الخاصة ، وسبيل المحبة الإلَهية الخاصة ، فهو سبحانه يُحبهم وهم أشد حباً لله ، وسبيل القرب من حضرة الرب؛ القرب الخاص ، وسبيل الوصول إلى مقام الأنس في حظيرة القدس ، فهم أولياء الحق ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾ .

اللهم بجاههم عندك تَفَضّل علينا بما تفضلت عليهم على وجه الفضل والمِنَّة ، بلا اختبار ولا محنة ـ آمين يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب.

والسير على الصراط المستقيم يتطلب أمرين:

الأول: الاستمرار في السير عليه ، والثبات ، والقيام بما يتطلبه من حقوق وواجبات ، على الوجه الذي جاء به الداعي إلى الصراط المستقيم، والهادي إليه وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ .

فالسير إلى الله تعالى يجب أن يكون على هذا الصراط ، الذي جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يهدي إليه ، فمن سار عليه وصل بسلام.

الثاني: الإخلاص وصدق التوجه إلى من سَلَكْتَ الطريق الموصل إليه؛ وهو الله تعالى ربّ العالمين؛ فإن سيرك على الصراط المستقيم

يوصلك إلى المقصود وهو ربك ، كما في الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ فاتباع الهادي إلى الصراط المستقيم وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو الإمام الأعظم؛ به تصل إلى الله تعالى.

وإلى هذين الأمرين العظيمين نبه الله تعالى عباده فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُۗ وَوَيْلٞ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ، فتدبر قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ فإنها تدل من باب التضمين على معنيين: الثبات والاستمرار ، وصدق التوجه إلى من هو المقصود، وذلك بالإخلاص، وعدم الرياء وحب الظهور والسمعة؛ وما هنالك من رعونات النفس؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ أي: فليُخلص ويباعد نفسه من الرياء، كما يدل على ذلك الحديث الذي رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما، والبيهقي من طريقه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل: يا رسول الله إنّي أقف الموقف ـ أي: في العبادة ـ أريد وجه الله ، وأريد أن يُرى موطني ـ أي: يراني الناس ـ فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ الآية ، كما في (ترهيب) المنذري.

وروى الإمام أحمد ، وابن ماجه وغيرهما ، عن ثوبان رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أنّ خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

والمعنى: ابذلوا جهدكم في الحصول على كمال الاستقامة، فإنّها تشمل استقامة القلوب، واستقامة اللسان، واستقامة الأعمال، واستعينوا بالله تعالى على ذلك كله.

قال العلامة المناوي: وكأن القصد به: تنبيه المكلف على رؤية التقصير، وتحريضه على الجد لئلا يتكل على عمله. اهـ.

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه».

ولذلك جاء في (سنن) الترمذي وغيره، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا أصبح ابن آدم فإنّ الأعضاء كلها تُذكِّر اللسان، تقول له: اتق الله تعالى فينا، فإنما نحن بك؛ فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا».

وروى مسلم وغيره، عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت يارسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: آمنت بالله، ثم استقم».

وفي رواية الترمذي زيادة: فقلت: يا رسول الله فما أخوف ما تخافه عليّ؟ فأخذ بلسانه وقال: «كفّ عليك هذا»[1].

---

(١) أي: احفظ لسانك من اللغو، ومن كل ما لا يرضاه الله تعالى: كالغيبة ونحوها حتى تنجو من المهالك.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾

موقع الصراط بدل المطابق ، ويسمى الموافق من الأول ، والبدل له حكم تكرير العامل وإعادته ، وذلك أنّ العبد لما كان في أشد الحاجة إلى هداية التوفيق من الله تعالى ، أُمر أنْ يسألها أولاً ، وأن يسألها ثانياً؛ ملحّاً ومؤكّداً سؤاله من ربه ، كما جاء في الحديث الذي رواه البيهقي وغيره ، عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى يحب الملحِّين في الدعاء».

وقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه بيان الصراط المستقيم المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وأنّ هذا الصراط هو المقصود ، وهو صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم ، وأن هذا الصراط هو المرجوُّ ، وهو المسؤول ، وهو الذي يجب على العبد أن يسأله من مولاه ، ويعلم أنّ هذا هو الصراط المستقيم ، لا ما يستحسنه عقله القاصر ، وتهواه نفسه ـ زعماً منه أن ما يستحسنه ويهواه هو الصراط المستقيم ، فإنّ الأهواء والآراء هي مختلفة في استحسانها ، وكثيرة الخطأ فيها.

كما أن قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه التنبيه إلى أنه ينبغي للعبد المستهدي صراط الذين أنعمت عليهم أنْ يقف موقف المستعطف المستجدي ، ويسأل حتى ينال المطلوب ، وذلك لأن الإنعام هو إيصال الخير إلى الغير من العقلاء ، فلا يقال في الرجل: أَنْعم على نفسه ، بل يقال: أنعم على غيره ، فكأن العبد يقول: أسألك يا رب ، أن تهديني الصراط المستقيم ، من

باب الإكرام والإنعام ، فأنا عبدك ، أستعطفك ، وأستجديك ، وأستمنحك ، فاعطف عليَّ وأحسن إليَّ ، وأنعم عليّ كما أنعمت على خاصة عبادك من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، واسلكني في نظامهم ، وألحقني في حفلهم وركابهم إلحاقاً .

وهؤلاء المنعم عليهم هم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ .

اللهم إنّا نسألك من فضلك العظيم .

ومن المعلوم أنّ إمامهم الأعظم ، وقائدهم الأكرم ، المقدَّم فوق كلّ مقدَّم ، هو إمام الأنبياء والمرسلين ، وخطيبهم وصاحب شفاعتهم كما جاء ذلك في الحديث الصحيح ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، فما أكرم هذه الرفقة وما أفضلها من رفقة كما يشير إلى ذلك : ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ .

وما أعظم شرف هذه القدوة ، وما أكرم هذه الأسوة .

نعم فإن إمامها الماشي أمامها هو حبيب الله الأكرم ، وخليفته الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ .

اللهم اجعلنا منهم بجاهه عندك ، وجزاك الله تعالى عنا يا رسول الله أفضل الجزاء اللائق بك ـ صلى الله عليك وسلم تسليماً .

إذا نحـن أدلجنـا وأنـت إمـامنـا
كفـى لمطـايـانـا بـذكـركَ حـادِيـا
وإن نحـن أضللنـا الطـريـق لغفـوةٍ
كفـى لِهُـدانـا نـورُ وجهـك هـاديـا

صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً.

فالماشي على الصراط المستقيم مع هؤلاء الرفقاء المقتدين بإمام الأنبياء ، يكون في أمان واطمئنان من أن يعترضه قطاع الطريق : من شياطين الإنس والجن ، وأعوان إبليس اللعين ، الذي قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فانتظامك في سلك هذا الجمع المبارك يجعلك في أمان ، وتصل إلى الله تعالى يا أخي بسلام.

كما أن قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فيه تنبيه للمؤمن إلى حسن الظن بالله تعالى ، وإلى اليقين بالإجابة ، وذلك أنّ الله تعالى هو الذي علَّم العباد كيف يسألونه الهداية ويطلبونها ، من باب الاستعطاف والاستنعام ، ففيه إطماع ووعدٌ محتم الوقوع بالإجماع ، حيث قال سبحانه في الحديث القدسي: «وإذا قال العبد ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

قال الله تعالى: هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل».

فسبحانك ما أعظم جودك وأوسع كرمك.

لو لم تُرِد نيلَ ما نرجو ونطلبه

مِنْ فيض جودكَ ما علَّمتنا الطلبا

وجلّ الله العظيم وتعالى عن أن يُخلف ما وعد ، أو يخيِّب داعيه فيما طلب ، أو يسلب ما أعطى ، أو يرجع فيما وهب.

وقوله تعالى:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمۡ﴾

في هذا دليل على أنّ أعظم النعم الإلّهية على عباده هو هدايتهم وتوفيقهم للإيمان، فتلك هي النعمة العظمى، والمنة الإلّهية الكبرى، كما قال سبحانه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

نعم إنّ نعمة الإيمان هي مصدر كل نعمة، **ونعم الله تعالى على عباده لا تحصى ولا تعد، ولكن منها نعم عامّة** تعمّ المؤمن والكافر، والبر والفاجر، **ومنها نعم خاصة** يخص بها من يشاء من عباده، **وهي على مراتب:**

فمن النعم العامة التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾.

وهذا سؤال حقائقهم الوجودية، وسؤالهم الذاتي وجميع ما فيهم من ذرات، فقد أعطى الله تعالى العباد كل ما يسألونه بلسان حقائقهم المفتقرة إليه في كل شيء، ولسان حال حاجتهم إليه في كل شيء: من هواء وماء وغذاء، وأرض وسماء، وكل ما يتوقف عليه حياتهم وبقاؤهم ومعاشهم، فهو سبحانه وحده الغني بالذات بالغنى المطلق، وما سواه فقير إليه بالذات، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

والمعنى: أن الله تعالى أنعم على عباده نعماً كثيرة وكبيرة، سماوية وأرضية، محيطة بهم، وأسبغ - أي: أوسع - عليهم في أنفسهم نعماً: **منها ظاهرة** محسوسة، كحسن الصورة، وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء، وإمداد تلك الأعضاء بقواها بحيث يقوم كل عضو بوظيفته، ولو لم يمده سبحانه لا ختل نظام الجسم وفسد أمره، وغير ذلك مما هو معروف: كالسمع، والبصر، واللسان، وسائر الجوارح، **ومنها الباطنة**: كالقلب والعقل والفهم، والحافظة والمدارك وغير ذلك مما خفي عليكم، ولم تصلوا إلى العلم به، ومع هذه النعم المسبغة على العباد، فإن منهم من يجادل في إثبات وجود الله تعالى، أو في توحيده، أو حكمته في تشريعه الحكيم، وكتابه الكريم - يجادلون بالباطل دون اعتماد على علم يقيني معقول، ولا على هدي نبي يوحى إليه أو رسول، ولا كتاب منير الحجة ساطع البرهان.

فيشهدون نعم الله تعالى، ويعرفونها في الأجواء المحيطة بهم: السماوية والأرضية، وفي أنفسهم الشخصية، ثم ينكرون المُنْعِمَ الخالق الحكيم العليم.

وأما نعم الله تعالى الخاصة ببعض عباده فهي على مراتب متفاوتة في الفضل، وكل مرتبة هي على درجات متعددة:

فأولها وأعظمها نعمة الهداية للإيمان: قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (٧) فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

فتوفيق العبد للإيمان ، وتحبيبه فيه ، وتعشقه به ، لأنه كله زينة حسناء ، ونور وضّاء ، كل ذلك فضل من الله تعالى عليهم ، ونعمة كبرى يمتنّ بها عليهم ، والله عليم بالقلوب التي فيها استعداد لذلك ، وتقبّل لهذا التفضل ، وهذا الإنعام والإكرام ، حكيم يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها .

قال تعالى : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

وقال تعالى في الكفار : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

ولقد امتن الله تعالى على عباده بما أنعم عليهم من أصناف النعم ، ولكن ذكَّرهم بنعمتين عظيمتين هما أعظم النعم وأفضل الكرم ، فخصّهما بذكر الامتنان والتفضل والإحسان .

أما الأولى فقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وأما الثانية فقوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

فذكَّر عباده المؤمنين بنعمتين عظيمتين ، ممتنّاً بهما عليهم ليشكروه على ذلك ، بل ليزيدوا في شكر الله تعالى عليهما ؛ ليزيدهم إيماناً واتباعاً لهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم .

فمن شكر الله تعالى على نعمة زاده منها ، وأتمها عليه .

روى البيهقي في (الشعب) بسنده عن منصور بن صفية قال : مرّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم برجل وهو يقول: الحمد لله الذي هداني للإسلام ، وجعلني من أمة أحمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «شكرت عظيماً» .

ومرَّ برجل وهو يقول: يا أرحم الراحمين .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قد أقبل عليك فسَلْ» يعني : أن أرحم الراحمين أقبل عليك فسل تُعْطَ .

فمن شكر الله تعالى على نعمة زاده الله تعالى منها ومن غيرها ، وقد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى أن يشكروا نعمة الله تعالى بالإيمان ، حتى يتمها عليهم ويتوفاهم على ذلك ، ويدخلهم الجنة التي وعدهم بها :

قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أي : بمشقة وتعب .

﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثماني عشرة سنة ، وقيل: غير ذلك.

﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي: وامتد به العمر حتى بلغ أربعين سنة .

﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ ﴾ أي: وفقني وألهمني .

﴿ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ من هداية التوفيق للإيمان .

﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ وذلك بأن يكون خالصاً لك ، سالماً من النفاق والرياء والعجب ، وحبّ الظهور وحبّ السمعة؛

وما وراء ذلك ، وبأن يكون على وفق شريعتك ورضاك كاملاً .

﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾ جيء بكلمة ﴿لي﴾ وبكلمة ﴿في﴾ ولم يقل : وأصلح ذريتي ، وذلك أنّ المطلوب أن يجعل له الله تعالى خَلَفاً صالحاً في ذريته ، والمعنى: واجعل لي خَلَفاً صالحاً ، ساري الصلاح في ذريتي؛ ما دام لي ذرية باقية .

فانظر ما أعظم هذا الدعاء الذي علمناه الله تعالى ، وما أجمعه وأعمه: لصلاح الدنيا والآخرة ، فواظب عليه أيها المؤمن دبر كل صلاة ، وخذها مني نصيحة لك .

﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ مما فَرط مني أيام شبابي وصبوتي .

﴿ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ لك ـ أي: المستسلمين لك : **اعتقاداً** فيما أمرتني به من العقائد ، **وعملاً** فيما أمرتني به من الأعمال ، **وقولاً** فيما أمرتني به من الأقوال .

فالإسلام هنا يشمل الإسلام والإيمان والإحسان ، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي: مسلمون مؤمنون محسنون .

روى أبو داود ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد ـ أي: في آخر الصلاة قبل السلام ـ وفي رواية الحاكم ، والطبراني ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمنا هذا الدعاء ـ أي: بدون قيدٍ بعد التشهد ، ولو بعد الصلاة ، أو في كل وقت:

«اللّهم ألِّف بين قلوبنا ، وأصلح ذاتَ بيننا ، واهدنا سُبل السلام ، ونجّنا من الظلمات إلى النور ، وجنِّبنا الفواحش والفتن

ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا ، وأزواجنا وذرياتنا؛ وتُبْ علينا إنّك أنت التوّاب الرحيم ، واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مُثنين بها عليك ، قابلين لها ، وأتمّها علينا» ـ اللَّهم آمين.

وروى الترمذي ، عن معاذ رضي الله عنه قال: سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً يقول: اللَّهم إني أسألك تمام النعمة.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «أيّ شيء تمام النعمة» أي: ماذا أردت بهذا الدعاء؟

فقال الرجل : دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بها أرجو بها الخيرَ .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإن تمام النعمة : دخول الجنة ، والفوز من النار» أي: بأن تموت على الإيمان فيدخلك الله الجنة وينجيك من النار.

قال معاذ رضي الله عنه: وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً يقول: يا ذا الجلال والإكرام.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم : «قد استجيب لك فسلْ».

قال: وسمع آخر يقول: اللهم إني أسألك الصبر.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «سألت الله البلاء فسله العافية».

اللهم إني أسألك العفو والعافية وحسن الختام ؛ يا ذا الجلال والإكرام.

فنعمة الإيمان هي أعظم النعم ، وهي من النعم الخاصة التي

يخص الله تعالى بها من يشاء، وهو العليم الحكيم.

وهناك **نعمة الوَلاية**، وهي من النعم الخاصة بمن شاء سبحانه ولايته وقربه، وهي على درجات متعددة:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾.

فدخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ جميع الأولياء على اختلاف مراتبهم في الولاية.

وهناك **نعمة النُّبوة ونعمة الرسالة** وهي فوق تلك النِّعم كلها، يخص بهما الله تعالى من شاء من عباده:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾.

ثم قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ الآيات.

ثم قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ الآيات.

ثم قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ - أي: من الأنبياء من ذرية إبراهيم وإسرائيل - ﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩﴾.

وقال في عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي: نعمة النُّبوة.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ .

فذكر هذه الأصناف الذين تفضل الله تعالى عليهم ، وأنعم عليهم بنعمه الخاصة ، وأولهم النبيون ، فإن نعمة الله تعالى عليهم أعظم ، وفضله عليهم أجلّ ممن بعدهم من الأصناف .

وإن أعظم من أنعم الله تعالى عليه ، وأجلّ من تفضل الله تعالى عليه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي خصصه الله تعالى بأعظم النعم ، وأجلّ العلوم والفضل والكرم .

قال تعالى :

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ .

فأقسم سبحانه بنون مدده الفياض ، ثم بالقلم الأول المستفيض ـ ويسمى القلم الأعلى ، ويسمى العقل الأول ، ويسمى بالحقيقة المحمدية النورانية التي هي أول الحقائق .

فهذا القلم هو الذي جاء في الحديث : «إنّ أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : يا ربِّ وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء إلى يوم القيامة» رواه أبو داود والترمذي .

وأما العقل الأول فهو الوراد في الحديث الذي رواه عبد الله بن أحمد في (زوائد المسند) عن الحسن يرفعه : «لما خلق الله العقل ، قال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال له : أدبر ، فأدبر ، فقال سبحانه : ما خلقت خلقاً أحبُّ إليَّ منك ، فبك آخذ وبك أعطي» قال الحافظ السيوطي في (الدر) : وهذا مرسل جيد الإسناد ، وهو موصول في

(معجم) الطبراني في (الأوسط) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسنادين ضعيفين. اهـ.

فقوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فقد أقسم سبحانه بقوله: ﴿نٓ﴾ وهو مدده سبحانه ثم بالقلم المستمد ثم بما تسطره الملائكة بأقلامها المستمدة ـ أقسم سبحانه بذلك على أمر عظيم، فيه مدد من الله تعالى كبير، وخير كثير، وفضل عظيم، ونعمة عظمى، ومنّة كبرى، فقال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، والمعنى: ما أنت أيها الذي أنعم الله عليك بالنبوة الفاتحة، والجامعة والخاتمة، وأنعم عليك بالرسالة العامة لجميع الأمم، وأنعم عليك بنزول هذا الكتاب الجامع، والقرآن الساطع، والفرقان القاطع، وعلمك إياه نصّاً وتلاوةً ومعنى؛ وأنت أُمّي، وأنعم عليك بإنزال الحكمة عليك؛ فأنت مجمع العلم والحكمة، وأنت البحر الطامّ والخير العام، الذي اختصه الله تعالى بأعلى الدرجات والمقامات، وأكبر المعجزات، صاحب العقل الأكمل، والفهم الأفضل ـ فلا يَتصور أدنى عاقل أن يكون الذي جمع الله تعالى ذلك كله فيه وتفضل به عليه، وجعله إمام الأنبياء والمرسلين ـ لا يتصور أدنى عاقل أن يكون فيه صلى الله عليه وآله وسلم شائبة جنون، بل المجنون الذي فيه كل الجنون من اتّهمك يا رسول الله بشائبة جنون، ولذلك فاصبر فـ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ وتحمل ولا تعجل عليهم بالعقوبة من الله تعالى لأنك على خلق عظيم ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ فهو فاتحة النبوات وجامعها وخاتمها، وبذلك حُقَّ له أن يكون إمام الأنبياء والمرسلين، وقائدهم، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم صلوات

الله تعالى عليه وعليهم ؛ كما ثبت ذلك كله في الأحاديث التي ذكرتها في مناسبات متعددة من كتبي ، فارجع إليها تجد الخير الكثير فيها إن شاء الله تعالى .

وهذا هو روح أرواحنا ، وقرّة أعيننا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال الله تعالى له: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾ ـ أي: خاصّة ـ ﴿عَظِيمًا﴾ .

فافهم وتدبّر هذه الخطابات الخاصة به صلى الله عليه وآله وسلم، يا أيها القارىء اللبيب ، عساك تعشق هذا الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن المرء مع من أحب ـ اللهم اجعلنا منهم آمين .

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

فالمعنى إنّا نسألك يا ربَّ العالمين من باب الفضل والإنعام ، كما أنعمت على أولئك المنعم ﴿عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ﴾ فها نحن واقفون ببابك ، ومتوجهون إلى جنابك ، نسألك اللهم أنْ تُلحقنا بذلك الحفل الكبير ، والجمّ الغفير ، الذين يؤمهم ويتقدمهم رسول الله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وحبيبه الأعظم ، الداعي إلى الله بإذنه ، والسراج المنير ، صاحب السيادة الشاملة ، والقيادة العامة الفاضلة ، فالكل به مقتدون ، ووراءه سائرون، وتحت لوائه مجتمعون صلى الله عليه وآله وسلم .

اللهم بجاهه عندك اجعلنا منهم يا ذا الجلال والإكرام ، ويا ذا الطول والإنعام ، عاملنا بما أنت أهله ، ولا تعاملنا بما نحن أهله ، فإنك أنت الله أهل التقوى وأهل المغفرة ، سلّكنا صراطه

المستقيم ، وسيِّرنا على منهاجه القويم ، واجعلنا من المتمسكين بكتابه وسنته ، والقائمين بشريعته ، وأحينا على سنته ، وأمتنا على مِلّته ، واحشرنا في زمرته ، وألحقنا في رفقته ، واجمعنا في حضرته ، وانفحنا بنفحاته ، وأفض علينا من بركاته ، واملأنا ظاهراً وباطناً جسماً وروحاً من أسراره وأنواره ـ آمين.

صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أبد الآبدين ، عدد خلق الله ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته.

تـنـبـيـه وذكـــرى :

قد علمتَ أيها القارىء ما تقدم في حديث النواس بن سمعان ، أنّه صلى الله عليه وآله وسلم بيَّن هذا الصراط المستقيم وهو الإسلام ـ أي : دين الإسلام ـ بما حواه من عقائد إيمانية ، وأمور تشريعية عملية وقولية ، وأخلاق أدبية ، وأنّ أموره التي جاء يطلب تطبيقها والتحقق بها هي على متن الصراط ، وأما المحرمات والمناهي فهي على جانبي الصراط ، فهذا الصراط المستقيم الذي هو الدين بمجامعه ، سوف يبرزه الله تعالى يوم الدين بصورة صراط ـ أي : طريق مشهود ـ يُضرب على ظهراني جهنم حتى تمرّ عليه الخلائق ، وبهذا المرور يظهر من تحقق بما جاء به الدين من الأوامر ، ويظهر من خالف ووقع في المناهي والمحرمات ، فهو صراط ممدود بين ظهراني جهنم ، وعلى جانبيه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ـ أي : بسبب أعمالهم ـ المحرمة التي ارتكبوها ، كما جاء في الحديث ـ المتفق عليه ـ يقول صلى الله عليه وآله وسلم ـ في حديث طويل ـ ومنه : «ثم يُضرب الصراط بين ظهراني جهنم،

فأكون أوّل من يجوز من الرسل بأمته ، ولا يتكلم يومئذٍ» ـ أي: على الصراط ـ «أحد إلا الرُّسل ، وكلام الرُّسل: اللهم سلِّم سلِّم» أي: سلِّم أتباعنا ومن آمن بنا.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وفي جهنم كلاليب» ـ أي: محيطة بجانبي الصراط ـ «مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم من يوبق بعمله ، ومنهم من يُخَردل ثم ينجو . . .» الحديث ـ أي: منهم من يوبق أي: يَهلك بعمله فيقع في جهنم ، ومنهم من يخردل أي: يقع ويُغمى عليه ثم ينجو ، وهكذا شأن العصاة الذين عليهم ذنوب لم يتوبوا منها ، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾.

وهناك يظهر إيمان المؤمنين الصادقين الصالحين ، ويظهر نفاق المنافقين المتظاهرين بالإيمان ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾.

فالمنافقون الذين قالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله بلسانهم ، ولم يعتقدوا ذلك بقلبهم؛ لما وضعوا أقدامهم على الصراط أضاءت لهم كلمة الشهادتين ، فلما مشوا وتقدموا طفىء نورهم ، ووقعوا في الظلمة ، فنادوا بالمؤمنين الصادقين أمامهم الذين يمشون على نور إيمانهم الصادق ، وجعلوا يقولون لهم: ﴿ انظُرُونَا ﴾ أي: انتظرونا لأجل أن نقتبس من نوركم ، ونمشي عليه ، فجاء الجواب: ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ وهذا من باب التهكم بهم ، وأنّى لهم أنْ يرجعوا إلى الدنيا فيؤمنوا ، على أنهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾.

ولما رأى المؤمنون أنّ المنافقين قد طفىء نورهم ، صاروا يدعون الله تعالى وهم على الصراط ، كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الآية.

والكلام على الصراط وقناطره واختلاف المارّين عليه في السرعة والبطء ذلك كله مفصل في كتابنا (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) فارجع إليه ، تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى.

وقد يقول قائل: إنّ الصراط الذي تمشي عليه العباد يوم القيامة هو صراط عام تمشي عليه الأمم ، وليس خاصاً بهذه الأمة المحمدية ، ولكن أول من يمشي عليه ويجتازه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأمته ، وهكذا وراء كل رسول أمته ، فمن اتبع رسول زمنه نجى ، ومن عصاه هلك ، ومن المعلوم أنّ الشرائع مختلفة في الأحكام ، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ الآية ، فكيف يمشون كلهم على صراط واحد ، وكيف تكون المؤاخذة على التكاليف؟

فالجواب: أنّ الأديان السماوية النازلة من عند الله تعالى على رسل الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هي كلها متفقة في: **الأوامر الإيمانية الاعتقادية** ، وهي: الإيمان بالله تعالى ، ووحدانيته ، وحقية عبادته وحده ، والإيمان بملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وقضائه وقدره ، واليوم الآخر وما يشتمل عليه من حشر ونشر ، وحساب وميزان ، وثواب وعقاب ، إلى ما وراء ذلك من الأمور الاعتقادية.

قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ

﴿إِلَيْكَ﴾ ـ أي: يا محمد يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾.

قال مجاهد في هذه الآية: أوصيناك يا محمد ونوحاً ومَن بعده مِن الرسل عليهم الصلاة والسلام ديناً واحداً.

والمعنى: شرعنا لكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة رسولكم ما قد شرعناه للرسل مِنْ قَبْلُ، ديناً واحداً من حيث الأصول الإيمانية الاعتقادية؛ من التوحيد وسائر العقائد.

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

وقال تعالى ـ مخبراً عن عيسى عليه السلام ـ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

فجميع العباد أمرهم الله تعالى بالسير على هذا الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

لأن العقائد الإيمانية هي مشروعة للكل، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «الأنبياء إخوةٌ أبناء علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

وأما الأصول التعبدية فهي أيضاً مشروعة للكل كالصلاة والزكاة ونحوها، وقد ذكر الله تعالى لنا في القرآن الكريم في جملة ما أوحى إلى سيدنا إبراهيم الخليل، وإلى الأنبياء من ذريته على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، فقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ .

وهكذا الصيام هو مشروع في جميع الشرائع ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه ، عن الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله تبارك وتعالى أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أنْ يعملوا بها ، وأنْ يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، وإنّه ـ أي: يحيى عليه السلام ـ كأنّه كاد أن يُبطىء بها ـ أي: بتبليغها ـ .

فقال له عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: إنّ الله تعالى أمرك بخمس كلمات أنْ تعمل بها ، وأنْ تأمر بني إسرائيل أنْ يعملوا بها ، فإما أنْ تأمرهم بها وإما أن آمرهم أنا بها .

فقال له يحيى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام: أخشى إن سبقتني بها ـ أي : بتبليغها ـ أن يُخسف بي وأعذَّب .

فجمع يحيى عليه السلام الناس في بيت المقدس ، فامتلأ المسجد ، وقعدوا على الشُّرف .

فقال يحيى عليه السلام: إنّ الله تعالى أمرني بخمس كلمات أن أعمل بها ، وأنْ آمركم أنْ تعملوا بها:

أوّلهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً؛ فإن مثل ذلك ـ أي: مثل من أشرك بالله تعالى ـ كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله

بذهب أو وَرِق ـ أي: فضة ـ وقال : هذه داري ، وهذا عملي ، فاعمل وأدِّ إليَّ ، فكان ـ العبد ـ يعمل ويؤدي إلى غير سيِّده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك .

وإنّ الله تعالى **أمركم بالصلاة** ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإنّ الله تعالى ينصب وجهه لوجه عبده ما دام في صلاته ما لم يلتفت .

وأمركم بالصيام فإنَّ مثل ذلك: كمثل رجل في عصابة ـ أي: جماعة ـ معه صرّة فيها مِسك ، وكلهم يعجبه ريحها ، وإنّ ريح الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة فإنّ مثل ذلك: كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يديه إلى عنقه ، وقدّموه ليضربوا عنقه ، فقال لهم: أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير ؛ ففدى نفسه منهم .

وأمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك: كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً ، حتى أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، وكذلك العبد لا يُحرز نفسه ـ أي: لا يحفظ نفسه ـ من الشيطان إلا بذكر الله تعالى. . . » الحديث .

ومن هنا يتبين لك أنّ الصلاة مشروعة في جميع الأديان ، ولكن تختلف كيفياتها وأعدادها وأوقاتها ، وكذلك الزكاة هي مشروعة في جميع الشرائع السماوية ؛ ولكن تختلف مقاديرها والكميات المالية التي تجب فيها الزكاة ، وهكذا الصيام هو مشروع في جميع الشرائع الإلّهية ؛ ولكن تختلف أوقاته وعدة أيامه .

وهكذا أصول العبادات متفق عليها ، ولكن تختلف مقاديرها وكيفياتها .

كما تختلف الشرائع الإلّهية في بعض الأحكام ، وذلك لأن الأحكام والأوامر الإلّهية هي صادرة عن حكمة ربّ العالمين ، فجاءت شرائع الله تعالى نُظُماً إلّهية صادرة عن علمه وحكمته ، فيها مصالح العباد والبلاد ، وفيها سعادة الدنيا والآخرة ، وكرامة الدنيا والآخرة ، وهذا قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ .

فشرائع الله تعالى هي مناهج إلّهية ، ضامنة لجميع المصالح البشرية ، كافلة لجميع الكمالات الإيمانية الإنسانية ، وكلها متفقة على توحيد الله تعالى ، وعلى جميع الأصول الإيمانية ، كما أنّها متفقة على أصول التشريع الإلّهي الذي تتوقف عليه مصالح العالم ، ونظام حياته الفردية والاجتماعية، ويدلك على هذا قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ، فإن قوم نوح عليه السلام كذبوا نوحاً الذي أرسل إليهم، في حين أنّ الآية تخبر أنهم كذبوا المرسلين كلهم.

نعم إنّ تكذيبهم المرسلين باعتبار إجماع كل المرسلين على توحيد الله تعالى، وأصول الإيمان ، وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، بل هي مصالح أساسية ضرورية لجميع الطبقات البشرية؛ وهذا كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ .

وكما قال تعالى في قوم ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ .

وقوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ .

وإنما اختلفت شرائع الرسل في بعض فروع الأحكام الشرعية المنوطة مصالحها باختلاف الأزمنة والعصور ، وجميع ذلك صادر عن علم الله تعالى ، وحكمته في تشريع الشرائع التي فيها مصالح العالم ، والله عليم حكيم في تشريعه وأحكامه ، فإن كل حكم

شرعه سبحانه هو صادر عن حكمته ، وهو إليه المنتهى في العلم والحكمة ، وليس لهما انتهاء.

وهذا معنى ما جاء في الحديث الشريف أنّ الأنبياء إخوة أبناء علات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد.

روى الشيخان ، وأبو داود وغيرهم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة ، ليس بيني وبينه نبي ، والأنبياء إخوة أبناء علات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

والإخوة إذا كانوا لأب واحد وأمهاتهم شتى فهم أبناء علات.

وقد ختم الله تعالى الشرائع والأديان بأكمل الشرائع وأجمعها لمصالح العباد ، وأنفعها ، بحيث لا تحتاج إلى تبديل ولا تغيير على مدى العصور ، وامتداد الدهور ، واختلاف الأمم والأجيال ، ألا وهي شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، خاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فالأصول التشريعية التي يتوقف عليها صلاح الدنيا والآخرة ، وصلاح العباد والبلاد: أفراداً وجماعات هي مشروعة في كل الشرائع ، ولكن أكملها تشريعاً ، وأجمعها هدياً وإصلاحاً ، وأعَمَّها نفعاً ، والتي هي صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان ، ولكل أمة على وجه الأرض إلى يوم الدين ؛ هذه شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، صاحب الرسالة العامة ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، فلا نبي بعده ولا رسول ، إذ لا حاجة إلى رسول بعده يأتي برسالة جديدة؛ لأن رسالته صلى الله عليه وآله

وسلم هي الكافية للكل ، والكافلة لمصالح الكل ، فأصول الشرائع متفق عليها كما تقدم.

وتسمى هذه الأصول بالكليات الستة على سبيل الإيجاز ، وهي مجموعة في قول العلامة اللقاني رحمه الله تعالى:

وحفظ دين ثم نفس مال نسب
ومثلها عقل وعرض قد وجب

فهذه الأمور الستة متفق عليها في جميع الشرائع الإلّهية ، وقد تسمى الكليات الخمس بناء على إدخال حفظ النسب في حفظ العرض.

فالأول حفظ الدِّين: وهو ما شرعه الله تعالى لعباده من العقائد والأحكام ، وذلك بالمحافظة عليه وصيانته ، وهذا يقتضي البعد عن المكفرات بأنواعها.

الثاني حفظ النفس: فهو مشروع للكل ، لما في ذلك من حقن للدماء ، فلا يجوز في جميع الشرائع قتل نفس ، ولا قطع شيء من أعضائها بغير حق شرعي ـ ولذلك شرع الله تعالى القصاص.

الثالث حفظ المال: فهو مشروع للكل ، فكل ما يملكه الإنسان شرعاً فإنه محفوظٌ لصاحبه ، فلا تجوز السرقة ، ولا النهب ، ولا الغصب في جميع الشرائع ـ ولذلك شرع الله تعالى حدّ السرقة.

الرابع حفظ النسب: فلا يجوز الزِّنى وما يجرّ إليه ، وقد شرع الله تعالى في جميع الشرائع حدّ الزنى.

الخامس حفظ العقل: ولذلك شرع الله تعالى حدّ السُّكْر.

السادس حفظ العرض: وهو موضع القدح والمدح ، فلا يجوز

القـذف ، ولا القـدح في الإنسان بغير سبـب شرعي ، فالقـاذف يُحدّ ، والقادح يُعزّر ويؤدِّبه الحاكم ، قال صلى الله عليه وآله وسلم ـ في مناسبات متعددة ، ويوم حجة الوداع ـ: «ألا وإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ، ألا هل بلَّغت ، ألا هل بلَّغت».

فكل أمة تمشي على الصراط ورسولها أمامها ، وتكون مؤاخذتهم على حسب تكاليفهم ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم يضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته» لأنه صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الهدي الجامع ، وشريعته جامعة للخير العام لجميع الأنام ، ولذلك كانت فاتحة خطبته صلى الله عليه وآله وسلم: «أما بعد: فإنّ أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وشرّ الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة».

ومن هنا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كان موسى حَيّاً لَما وسعه إلا أن يتّبعني».

قوله تعالى:

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين

هذا موقف الاستعاذة بالله تعالى والتحصُّن به سبحانه من الميل والانحراف عن السير على الصراط المستقيم ، فإن السالك على الصراط المستقيم يجب عليه أن يكون مستقيم التوجه ، فإذا انحرف ولو شيئاً من الانحراف واستمر؛ فإن النتيجة أنه يخرج عن الصراط

المستقيم ، فيجب أن يكون السالك على الصراط المستقيم مستقيماً كالزاوية القائمة.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وفي (مسند) الإمام أحمد ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطّاً بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً».

وخطّ عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السُّبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه».

ثم قرأ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾ الآية.

ولذلك أثنى الله تعالى على أهل الاستقامة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قال الإمام الزهري: تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية على المنبر ثم قال: (استقاموا والله بطاعته سبحانه ، ولم يروغوا روغان الثعالب) اهـ.

وروغان الثعلب هو: مَيْله عن سير الاستقامة ، لأنّه يمشي منحرفاً هكذا وهكذا: يمنة ويسرة.

فأمرنا الله تعالى أن نسأله التوفيق للسلوك على الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم ثم نقول: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ طالبين منه الحفظ والوقاية من الانحراف والزيغ عن الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله تعالى

عليهم ، حتى لا نكون من الذين أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال ، كما في الحديث المتفق عليه ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لتتبعنّ سنن مَن قبلكم : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم».

قالوا: يا رسول الله اليهودَ والنصارى؟

قال: «فَمَنْ» أي: هم تتبعونهم.

فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الذين ينحرفون عن صراطه المستقيم ، ويتبعون سَنَن ـ أي: طريق اليهود والنصارى ـ فالسنن هو الطريق ، وبه جاءت أكثر النسخ ، وفي بعض النسخ: سُنُن ـ جمع سُنّة ، وهي في اللغة: الطريقة والعادة ، ولكن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم» يؤيّد الأول وهو **سَنَن** أي: طريق.

وقد رواه الحاكم بإسناد صحيح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لتركبن سَنن من كان قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو أنّ أحدهم دخل جحر ضبٍّ لدخلتم ، وحتى لو أنّ أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه».

قال العلماء: هذا الحديث جاء على طريق الخبر ولكن معناه النهي ، والمراد به التخويف ، وتحذير هذه الأمة أن تسلك طريق اليهود والنصارى ، أو تنحرف عن الصراط المستقيم ، وتتبع السُّبُل كما تقدم في الآية: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

فنهى الله تعالى هذه الأمة عن الانحراف في سيرها على الصراط المستقيم وهو : دين الإسلام ، بل تستقيم على سير هذا الصراط المستقيم : الإسلام ، متمسكة بعقائده وأخلاقه ، وعاداته وآدابه ، الفردية والاجتماعية ، مع الصغير والكبير ، والقريب والبعيد ، قياماً بالحقوق والواجبات ، ووقوفاً عند أحكام الشريعة ، قال تعالى : ﴿ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

فيه إعلان الغضب من الله تعالى على من انحرف عن ذلك الصراط المستقيم ، وإعلان حكمه عليهم بالضلال عن طريق الهدى المستقيم ، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم عاماً لجميع الكفار .

قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ .

ففي هاتين الآيتين الكريمتين إعلانه سبحانه بغضبه على جميع الذين كفروا ، وأنّهم كلهم في ضلال عن سبيل الحق والهدى ، يعمهون في طغيانهم وأهوائهم؛ التي أعمت بصائرهم ، وسلبت عقولهم ، وأصمّت آذانهم عن السماع للقول الحق المحكم ، كما أخبر سبحانه عنهم : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

وقد أخبر سبحانه في القرآن الكريم بإعلان غضبه على اليهود خاصة ؛ وبضلالهم :

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ كما في سورة المائدة.

وقال تعالى في النصارى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وقد روى الترمذي، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «المغضوبُ عليهم: اليهودُ، والضالُّون: النصارى».

وقد رواه الإمام أحمد في (مسنده) وابن حبان في (صحيحه) وغيرهم.

وإنّما خصّ هؤلاء بوصف الضلال، وإعلان الغضب عليهم؛ لأنهم عرفوا طريق الحق، ولكن لم يعترفوا، بل انحرفوا، فإن كتبهم التوراة والإنجيل قد أوضحت لهم حقيَّة ما جاء به الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ذكره سبحانه في كتبهم، بأوصافه ومبادئه ودعوته، كما قال سبحانه ـ في الذين آمنوا منهم، ثم في كل من آمن به صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾.

ثم قال في كل مَنْ آمن بهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله

وسلم ، وعمَّم جميع العرب والعجم:

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ .

بل ذكر سبحانه صفات أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه في التوراة والإنجيل فقال:

﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ .

ولو لم يكن ذلك مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل لما احتج عليهم ، لأنهم يقولون هذه التوراة وهذا الإنجيل وليس فيها شيء من ذلك ، فيكون ذلك حجة لهم ، بل إنه احتج عليهم بما يُقرون بكتابته في التوراة والإنجيل آنذاك.

﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

الغضب ضد الرضى ، ومقتضاه السخط والانتقام.

والرضى مقتضاه المحبة والإكرام.

وأصل كلمة **الضلال في لغة العرب** معناها: الهلاك ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ ﴾ أي: إذا هلكنا ومِتْنا ، سوف نبعث ونُخلق خلقاً جديداً ـ وهذه نزلت في منكري الإعادة.

وقال تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي : أهلكها وأتلفها .

والضلال في عرف الشرع والدين هو: الذهاب عن طريق الحق ، وسلوك طريق الباطل .

والحقُّ هو الموصل إلى السعادة والسلامة في الدنيا والآخرة .

وأما الباطل فهو موصل إلى الهلاك وإلى شقاء الدنيا والآخرة .

والحق هو ماله حقيقة وجودية ، كماء النهر الجاري يراه العطشان فيأتي إليه فيشرب ، وأما الباطل فليس له حقيقة ، بل هو ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ .

﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

في هذا شهادة من الله تعالى للذين آمنوا وأنعم الله عليهم بالسير على الصراط المستقيم ، المذكورين في الآية المتقدمة ، وفي هذا شهادة بأنّهم على الهدي المبين ، ولهم الرضى من رب العالمين .

قال تعالى ـ بعدما ذكر المؤمنين في أول سورة البقرة ـ : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فهم سائرون على هدى من ربهم ؛ وليسوا بضالين ، وهم الذين رضي الله عنهم فنالوا الفلاح ؛ وليسوا من المغضوب عليهم .

والفلاح هو الظفر بالبُغية المطلوبة ؛ ومن المعلوم أنّهم كما وصفهم سبحانه : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ فقد أفلحوا ، ونالوا رضى الله تعالى ، وظفروا بسعادة الدنيا والآخرة ـ اللهم اجعلنا منهم .

* * *

بعض اللطائف والمواقف
التي اشتملت عليها سورة الفاتحة في الصلاة
وما في ذلك من البشائر

تقدم حديث مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «قال الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين.

فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».

وجاء في رواية البيهقي: «فإذا قال العبد: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، قال الله تعالى: ذكرني عبدي» ـ إلى تمام الحديث كما تقدم ص / ٦٤/ .

فهذا الحديث يدل على المواقف التالية:

موقف الذاكر لله تعالى باسمه الجامع للأسماء الإلٓهية ما علمنا منها وما لم نعلم ، وهو اسم الجلالة الله فإنّه عَلَمٌ على الذات الإلٓهية ، المتصف بالصفات العليا ، والمتسمي بالأسماء الحسنى ، على وجه لا يُحد ولا ينتهي ، فَمِنْ ثَمّ كان جواب الحق: «ذكرني عبدي».

وما أشرف مقام الذاكر لله تعالى الذي شهد الله تعالى بأنه ذكره ، وهو سبحانه يقول : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ .

وفيها موقف الحامد لله تعالى: «فإذا قال العبد: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الله تعالى : حمدني عبدي» ومقام الحامدين هو من أشرف المقامات، قال تعالى: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾ .

وفيها مقام التمجيد لله تعالى: «وإذا قال العبد: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال الله تعالى : مجدني عبدي» والمعنى : أقرّ لي عبدي بالمجد ، وهو الشرف الأعظم بعزة الربوبية ، وسيادة الألوهية ، فإن المجد يدل على شرف المقام وعلو الشأن ، والله تعالى هو أهل الثناء والمجد على وجه ليس كمثله شيء .

وقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم ـ كما تقدم ـ «أهل الثناء والمجد . . . » الحديث .

فهو سبحانه المجيد ، وكلامه مجيد ، قال تعالى: ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ لأنّه فوق كل كلام ، وأفضل من كل كلام ، وفي الحديث: «وإنّ فضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه».

وإن عرشه سبحانه مجيد ، قال تعالى: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ قرأ حمزة والكسائي بخفض الدال نعتاً إما: للعرش وإما لربك في الآية: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ ، وقرأ الباقون ومنهم حفص برفع الدال نعتاً لذو ، أو خبر بعد خبر . اهـ كما في (إتحاف البشر) .

«وإذا قال العبد: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل».

هذا موقف الاعتراف بالعبودية لمن له عزة الربوبية.

وفيه موقف اعتراف العبد باستحقاق العبادة لرب العالمين وحده.

وفيه موقف إعلان العبد وإقراره بقيام ما أوجبه سبحانه عليه، وبما خلقه الله تعالى لأجله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وفيه موقف إقرار العبد واعترافه بفقره لربه وشدة حاجته لإعانته، فهو موقف العبد الفقير بالفقر الذاتي لربه الغني المطلق بالغنى الذاتي.

«فإذا قال العبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

وفي هذا موقف الاستهداء، وفي الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضالّ إلا من هديته فاستهدوني أهدكم».

وفيه موقف الاستجداء، وطَرْق باب الإنعام والإكرام.

وفيه موقف التعوذ والتحصن من الغضب والضلال في العقائد؛ والأعمال، والأقوال، والأخلاق والأحوال.

وهذا الموقف مُشار إليه في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وسيأتي تتميم لهذا البحث وإيضاح له، ليعلم المسلم فضل

هذه السورة ، فيلاحظ تلك المواقف حين يتلوها في الصلاة؛ ولو على طريق الإجمال.

تنبيه:

من السنَّة أنْ يأتي القارىء بعد ختام سورة الفاتحة بقوله: آمين ، والدليل على ذلك ما رواه أصحاب السنن ، والإمام أحمد وغيرهم ، عن وائل بن حجر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقال: «آمين» ـ يمدّ بها صوته صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى مسلم ، وأبو داود والنسائي، وغيرهم ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا قرأ ـ يعنى الإمام ـ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين ، يجبكم الله تعالى» يجبكم بالجيم أي: يستجيب دعاءكم.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: وهذا حثٌّ عظيم على التأمين ، فيتأكد الاهتمام به. اهـ.

وروى الشيخان ، وأصحاب السنن ، وغيرهم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا أمّن الإمام فأمّنوا ، فإنّه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه».

وفي رواية البخاري: «إذا قال أحدكم: آمين ، وقالت الملائكة

في السماء : آمين ، فوافقت إحداهما الأخرى غُفر له ما تقدم من ذنبه» .

وفي رواية للنسائي: «وإذا قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين ، فإنه من وافق كلامه كلام الملائكة غُفر لمن في المسجد» .

وفي هذا دليل اقتداء الملائكة بالإمام ، وكلما كان الإمام أتقى وأقرأ اقتدى به من الملائكة أكثر .

روى ابن مَرْدُوْيَه ، وأبو يعلى بسند جيد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال الذين خلفه: آمين .

ومَن لم يقل : آمين كمثل رجل غزا مع قوم ، فاقترعوا سهامهم؛ ولم يخرج سهمه .

فقال : ما لسهمي لم يخرج؟

قال : إنّك لم تقل آمين» .

ومعنى آمين : اللهم استجب .

وتُمد ألفها وتقصر في لغة العرب .

قال الحافظ المنذري: قيل: هو اسم من أسماء الله تعالى ، وقيل معناها: اللهم استجب ، أو كذلك فافعل ، أو كذلك فليكن . اهـ .

ويُسمّى عند علماء النحو باسم الفعل ، وهو كلمة ليست من

القرآن إجماعاً ، ولذا يستحب الفصل بينها وبين آخر الفاتحة بسكتة لطيفة.

استحباب التأمين عند كل دعاء:

ويستحب التأمين عند كل دعاء ، فقد أخرج أبو داود بسند حسن عن أبي زهير النميري رضي الله عنه ـ وكان من الصحابة ـ أنّه كان إذا دعا الرجل بدعاء قال: اختمه بآمين ، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة.

وقال: أخبركم عن ذلك: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة ، فأتينا على رجل قد أَلَحّ في المسألة ـ أي: في الدعاء ـ فوقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسمع منه.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أوجب إن ختم».

فقال رجل من القوم: بأي شيء يختِم؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «بآمين ، فإنَّ مَنْ ختم بآمين فقد أوجب» ـ أي: تحتمت إجابة دعائه ـ اللهم آمين.

وروى الديلمي ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم قرأ فاتحة الكتاب ثم قال: آمين ؛ لم يبقَ في السماء ملك مقرب إلا استغفر له».

وروى الطبراني في (الدعاء) وابن مردويه بسند ضعيف ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «آمين خاتَم رب العالمين على لسان عباده المؤمنين».

قال العلامة المناوي ـ في تفسير هذا الحديث ـ: بمعنى أنّ آمين

يمنع الدعاء من فساد الخيبة والرد ، كما أنّ الطابع على الكتاب يمنع فساد ظهور ما فيه على الغير . ا هـ.

فخاتم الكتاب يحفظه من التلاعب فيه؛ والعبث والتغيير ، وكذلك آمين تمنع الدعاء من رده ومن الخيبة فيه.

والداعي والمؤمِّن شريكان في الدعاء :

أخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن عكرمة قال : (كان موسى عليه السلام يدعو ، ويؤمن هارون عليه السلام) أي : حين دعا موسى بقوله : ﴿ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ .

فقال الله تعالى : ﴿ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا ﴾ .

وورد نحو ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما .

وروي مرفوعاً : «الداعي والمؤمِّن شريكان في الأجر» وفي إسناده ضعف ، لكنّ المعنى صحيح ، كما دلّت عليه الآية : ﴿ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا ﴾ .



من فضائل سورة الفاتحة وخصائصها

١ ـ هي أعظم سورة في القرآن الكريم:

روى البخاري، وأحمد، وأصحاب السنن، عن أبي سعيد ابن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم أجبه، ثم أتيته ـ أي: بعد انتهاء الصلاة ـ فقلت: يا رسول الله إنِّي كنت أصلي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألم يقل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾» يعني: أنَّ الأمر بالاستجابة لدعوته عام لكل حال.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أعلمك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أنْ تخرج من المسجد»؟.

ثم أخذ بيدي، فلما أراد أنْ يخرج قلت: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وروى الترمذي والنسائي، وأحمد وغيرهم، عن أبي هريرة

رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على أبي بن كعب رضي الله عنه وهو يصلي: وذكر أنّه ناداه صلى الله عليه وآله وسلم فلم يُجبه ، فصلى أبيّ بن كعب وخفف ، ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما منعك أنْ تجيبني إذْ دعوتك»؟.

فقال: يا رسول الله إنّي كنت في الصلاة.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألم تجد فيما أوحى الله تعالى إليّ أن ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾»؟.

قال: بلى ـ ولا أعود إنْ شاء الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أتحب أنْ أعلمك سورةً لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها»؟.

قال: نعم يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف تقرأ في الصلاة»؟

فقرأ بأم القرآن.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، وإنّها سَبْعٌ من المثاني» أو قال: «السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُعطيته».

والمعنى: أنّه لم ينزل في الكتب الإلٓهية الأربعة أعظم من هذه السورة ، بل هي أعظم من كل السور.

روى الحاكم وصححه ، وأبو ذر الهروي ، والبيهقي في (الشُّعَب) عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مسير له ، فنزل فمشى رجل من أصحابه إلى جنبه ، فالتفت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه فقال: «ألا أخبرك بأفضل القرآن»؟

فتلا عليه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وكونها أعظم السور يدل على أن تلاوتها أفضل من غيرها.

٢ ـ هي جامعة لذكر الله تعالى ، وحمده ، والثناء عليه ، وتمجيده سبحانه ، وموقف العبد في موقف العبودية لرب العالمين ، مع إقراره بالعبادة ، وأنّها حق لله تعالى عليه.

وفيها موقف الاستعانة ، وموقف الاستهداء ، وموقف الاستجداء ، وموقف التعوذ بالله تعالى والتحصن به ، وطلب الثبات على الإيمان ، وكل ذلك مضمون الإجابة والقبول بدليل الحديث الآتي: «ولعبدي ما سأل».

وأما الدليل على أنّها مشتملة على جميع تلك المقامات والمواقف: فقد روى مسلم ، والإمام أحمد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال الله تعالى: حمدني عبدي.

وإذا قال العبد: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي.

وإذا قال العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

قال الله تعالى: مَجّدني عبدي.

وإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.

وإذا قال العبد: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

وجاء في رواية الدارقطني والبيهقي في أول هذا الحديث: «فإذا قال العبد: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: ذكرني عبدي...» الحديث.

والمراد بالصلاة هنا سورة الفاتحة، بدليل أنّه فسرها بعد فقال: «فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾...».

قال كثير من العلماء رضي الله عنهم: وسميت الفاتحة بالصلاة لأنَّ الصلاة لا تصح أصلاً إلا بها.

وقال آخرون: بل لا تتم ولا تكمل إلاَّ بها ـ والحكم مفصل في كتب الفقه.

وقال الحافظ المنذري: يعني بالصلاة هنا: القراءة، بدليل

تفسيره بها ، وقد تسمى القراءة صلاة لكونها جُزءاً من أجزائها ـ والله أعلم.

وأما الدليل على أنّ كل ما فيها مضمون الإجابة:

أولاً: قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتقدم: «فإذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي ، وإذا قال العبد: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي. . .» إلخ الحديث.

فهذا الجواب من الحق دليل قبول حمد الحامد بها وثناؤه وتمجيده.

ثم قوله في الحديث: «فإذا قال العبد: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

فقوله تعالى في الجواب: «ولعبدي ما سأل» ضمان الإجابة لا محالة.

ثانياً: مِنْ هنا تفهم ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم والنسائي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بينما جبريل عليه السلام قاعِدٌ عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمع نقيضاً ـ أي: صوتاً كصوت الباب ـ من فوقه ، فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء فُتح ، لم يُفتح قَطّ إلا اليوم» فنزل منه ملك فقال: «هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم» فسلم ـ أي: الملك ـ

وقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيته» كما في (ترغيب) المنذري.

٣ ـ **سورة الفاتحة هي سورة المناجاة:** فإن فيها المناجاة بين العبد وربه، كما دلَّ على ذلك الحديث المتقدم: «إذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي» الحديث.

وأيّ شرف أعظم، وأي فخر أفخم من موقف العبد مناجياً لربه، وفي هذا تكريم عظيم من الله تعالى لعبده المؤمن، بأن أوقفه موقف المناجي له، ومنحه سبحانه القبول لما يُقدمه العبد من ذكره وحمده وثنائه، وتمجيده وتوحيده، وضمانه سبحانه لعبده الإجابة لِمَا سأله العبد.

فلمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

٤ ـ **سورة الفاتحة شفاء من كل داء:**

روى الشيخان، وأصحاب السنن، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سرية ـ ثلاثين راكباً ـ فنزلنا بقوم من العرب، فسألناهم أنْ يُضيفونا فأبوا، فَلُدغ سيدهم، فقالوا: فيكم أحدٌ يرقي من العقرب؟

قال أبو سعيد: فقلت: أنا، ولكن لا أفعل حتى تُعطونا شيئاً.

فقالوا: نعطيكم ثلاثين شاة.

قال أبو سعيد: فقرأت عليه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سبع مرات ـ وفي رواية: ثلاث مرات، وفي رواية: مرة واحدة

ـ فبرئ ، فلما قبضنا الغنم عَرض في أنفسنا منها ـ أي: هل تحل لنا أم لا تحل ـ فكففنا حتى أتينا النبي ﷺ ، فذكرنا ذلك له.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «أما علمت أنّها رُقيه ، اقتسموها ـ أي: الغنم ـ واضربوا لي معكم بسهم».

والتداوي بالقرآن لا يمنع التداوي بالأدوية والعقاقير المادية ، فقد قال سبحانه في العسل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ وهو مادة ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من داء إلا وفي الحبة السوداء منه شفاء إلا السّام»[1] ـ أي: الموت ـ.

وقد صُنِّفَتْ كتب كثيرة في الطب النبوي ، ووردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة في ذلك.

وروى البخاري وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواءً».

وروى الإمام أحمد ، والبيهقي في (الشعب) بسند جيد عن عبد الله بن جابر رضي الله عنهما ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «ألا أخبرك بخير سورة نزلت في القرآن»؟.

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «فاتحة الكتاب»، وأحسبه قال: «فيها شفاء من كل داء»[2].

وأخرج سعيد بن منصور في (سننه) والبيهقي في (الشعب) ،

---

(١) متفق عليه.

(٢) هذا لفظ البيهقي.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فاتحة الكتاب شفاء من السمّ».

وروى الدارمي والبيهقي بسند رجاله ثقات ، عن عبد الملك بن عمير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فاتحة الكتاب شفاء من كل داء».

وروى أبو عبيد عن طلحة بن مصرف قال: كان يقال: إذ قرىء القرآن عند المريض وَجَد لذلك خفة.

قال: فدخلت على خيمته فقلت له: إني أراك اليوم صالحاً ـ أي: صحيح البدن ـ فقال: إيه ، قرىء عندي القرآن الكريم.

٥ ـ من خصائصها أنها تحفظ من شر العين الحاسدة:

أخرج الطبراني في (الأوسط) والدارقطني في (الأفراد) وابن عساكر ، عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: (عَوّذني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بفاتحة الكتاب تفلاً).

وروى الديلمي في (الفردوس) عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال: (فاتحة الكتاب وآية الكرسي لا يقرؤهما عبد في دار فتصيبهم في ذلك اليوم عين إنس أو جن).

٦ ـ سورة الفاتحة يُرقى بها المعتوه والمجنون:

فقد روى أبو داود ، عن خارجة بن الصلت التميمي عن عمه أنّه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسلمت ، ثم رجعت على قوم عندهم مجنون موثق بالحديد.

فقال لي أهله: إنا حُدِّثْنا أنّ صاحبك هذا ـ أي: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ قد جاء بخير، فهل عندك شيء تداويه؛ فرقيته؛ بفاتحة الكتاب فبرئ، فأعطوني مائة شاة، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته.

فقال: «هل قلت غير هذا»؟

قلت: لا، قال: «خذها» الحديث.

٧ ـ من خصائص الفاتحة أنها تُقْرأ لقضاء الحاجات:

روى أبو الشيخ عن عطاء قال: (إذا أردت حاجة فاقرأ بفاتحة الكتاب حتى تختمها تُقضى إنْ شاء الله تعالى).

ومن المعلوم أنّ قارئها بنية قضاء الحاجة هو كالداعي ربه أنْ يقضي حاجته، وقد صح في الحديث: «مَنْ شغله القرآن عَنْ مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين؛ وإنّ فضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» رواه أصحاب السنن.

٨ ـ سورة الفاتحة تُقْرأ عند النوم للأمان:

روى البزار في (مسنده) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا وَضَعْتَ جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فقد أمنت من كل شيء إلا الموت».

وروى ابن عساكر، عن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا أخذ أحدكم مضجعه ليرقد: فليقرأ بأم القرآن وسورة، فإنّ الله يوكّل به ملكاً يوجّهه إذا هَبّ» والمعنى: يصحبه ويرقبه حتى يهب من النوم.

٩ ـ **وتسمى الفاتحة سورة الحمد**: لأنّ فيها ذكر الحمد المقبول عند الله تعالى، بشهادة الجواب: «حمدني عبدي» الحديث كما تقدم.

وتسمى سورة فاتحة الكتاب: لأنّها تفتتح بها قراءة القرآن الكريم، وافتتحت بها الكتابة في المصاحف خطاً، تبعاً لكتابتها في اللوح المحفوظ، ولأنها أوّل سورة تفتتح بها الصلاة.

وتسمى أمّ الكتاب: ـ أي: القرآن الكريم ـ.

فقد روى الترمذي وصححه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أمّ القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني والقرآن العظيم».

قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت الفاتحة أمّ الكتاب لأنه يُبدأ في كتابتها في المصاحف، ويُبدأ بقراءتها في الصلاة. اهـ.

وقال بعض العلماء: سميت أم القرآن لأنّها أوله، ومتضمنة لجميع علومه، ولذلك سميت مكة أمّ القرى لأنها أول الأرض خَلقاً، ومنها دحيت الأرض.

وسميت الأمُّ أمّاً لأنها أصل النسل.

ويقال لراية الحرب أمّ لتقدمها أمام الجيش واتباع الجيش لها.

ويقال للأرض أمّ لأنها الأصل الذي خُلق منها الإنسان.

وفي الحديث: «تحفَّظوا من الأرض فإنّها أمكم، وإنه ليس من

أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلاَّ وهي مخبرة عنه»[1].

فتضمنت سورة الفاتحة علوماً قرآنية أجملت فيها؛ ثم فصلت في السور بعدها ، كما أجملت الشجرة الكبيرة المثمرة في أصل العَجْمة ، فإن جميع فروع الشجرة وما احتوت عليه كل ذلك كان مجملاً في أصل العجمة إجمالاً ، كما أجملت السنبلة في الحبة إجمالاً ، ثم فصلها وخلقها فالق الحب والنوى.

وقد ذكر كثير من المحققين والعلماء العارفين وجوهاً من إجمال المعاني والعلوم في سورة الفاتحة ، وإن كانت العلوم القرآنية لا تُحصى تفصيلاً وعداً ، فمن جملة العلوم المجملة في سورة الفاتحة أنّها مشتملة على خمسة أنواع:

الأول: علوم العقائد وهي التي تُسمى بالإلّهيات المشتملة على معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته وكمالاته ، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الثاني: النبوات ويشمل ذلك الإيمان بالرسالات الإلّهية ، والشرائع الربانية ، وما جاءت به الأنبياء عليهم السلام ، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنه يثبت الجزاء ، وهو مبني على الأعمال: حسنها بالثواب ، وسيئها بالعقاب ، ولا يُعرف ذلك إلا بإرسال الرسل وإنزال الشرائع.

الثالث: علوم العبادات المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والعبادات منها بدنية كالصلاة والصيام ، ومنها مالية

---

(١) كما في (معجم) الطبراني وغيره.

كالزكاة ، ومنها بدنية مالية كالحج ، وسائر أعمال العبادات تجري على هذا التقسيم.

ولا يتم أمر العبادات والقيام بالحقوق والواجبات؛ إلا بصلاح أمور الدنيا ومعايشها ، وذلك قائم على تنظيم المعاملات المالية ، وتنظيم الأحوال الشخصية المسماة بالمناكحات ، وما يتطلب ذلك من حقوق وواجبات ومسؤوليات ونفقات؛ ولا يتم صلاح ذلك إلا بالحكومات والنظم التي تتطلبها مصالح العباد والبلاد.

الرابع: العلوم التي يحصل بها الكمال الإيماني ، وبها يرتقي العبد من الإنسان البهيمي الحيواني ، إلى الإنسان الكامل الرباني ، وهذا لا يكون إلا بالسلوك على الصراط المستقيم المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وهذا الصراط هو المنهج الجامع لصلاح الأعمال ، وكمال الأخلاق ، والمشتمل على جميع قضايا الإيمانيات ، وهو الصراط الذي جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو إليه ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ أي: لمنحرفون إلى الطريق العوجاء التي من سلكها ضلَّ ، وهلك في المهالك ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء».

وفي رواية: «تركتكم على مثل البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك».

وهذا الصراط المستقيم المعني في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ أي: فمن أراد أن يسير على الطريق الموصل إلى الله تعالى فعليه سلوك هذا الصراط ، متبعاً لك

يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ والهادي من شأنه أن يكون إماماً ، وأن يمشي أماماً.

الخامس: علم القصص ، والإخبار عن الأمم السابقة وفيهم السعداء وفيهم الأشقياء ، وحال كل منهما ، وما يترتب على ذلك ، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

١٠ ـ وتسمى الفاتحة السبع المثاني: ـ كما تقدم ـ وذلك إما مشتق من التثنية؛ **وسميت بذلك:**

لأنّها تُـثَـنَّى وتعاد في كل صلاة ذات ركوع وسجود.

أو لأنَّها يقرأ بعدها سورة.

أو لأنها نزلت مرتين في مكة وعليه الأكثر ، وفي المدينة أيضاً على قول كثيرين.

أو لأنّها قُسمت نصفين كما ورد في الحديث المتقدم: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» ، وفي رواية: «قسمين» الحديث ـ وقيل غير ذلك.

وإمّا أنّ المثاني مشتق من الثناء لما فيها من أنواع ثناء العبد على الله تعالى: بالذكر والحمد ، والتمجيد ، والتوحيد لله ، وفيها ثناء الله على العبد الذي يتلوها ، وينال فضل قراءتها.

وإما أن تكون المثاني مشتقةً من الثنيا بمعنى: الاستثناء ، فهي خاصة ومستثناة من الله تعالى لهذه الأمة ، بدليل أنّها كانت مكنوزة تحت العرش ، كما جاء في الأحاديث الشريفة.

وأما قوله تعالى ـ في القرآن الكريم ـ: ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ الآية ، فهذا باعتبار أنّه سبحانه يَقرن بين ذكر الوعد والوعيد ، وذكر آيات الخوف وآيات الرجاء؛ كما يقرن ويذكر سبحانه صفات المؤمنين وصفات الكفار ، وحال الأبرار وحال الفجار؛ وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء ، ومآل هؤلاء وهؤلاء؛ وغير ذلك.

كما أنّ القرآن الكريم يثنى وتُكرر تلاوته على مدى الأيام ، فلا يندرس ولا تنقطع قراءته إلى يوم الدين ، فلا يزال في كل زمان له قرّاء يقرؤونه ويتلونه ويعلّمونه.

وأما المثاني من السور فهي : ما دون المئين؛ فإنّ سور القرآن الكريم على أقسام أربعة: السبع الطوال ، ثم المئون ، ثم المثاني ، ثم المفصّل ، وهي من الحجرات إلى سورة الناس.

والمفصّل ثلاثة أقسام: طوال وأوساط وقصار ، كما هو مبين في كتب الفقه.

ففي صلاة الفجر والظهر تسن القراءة من طوال المفصل أو مقدارها ، وفي صلاة العصر والعشاء تسن القراءة من أوساط المفصل أو مقدراها ، وفي صلاة المغرب يقرأ من قصار المفصل.

١١ ـ ومن فضائل سورة الفاتحة أيضاً: ما روى إسحاق بن راهويه ، عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه أنه سئل عن فاتحة الكتاب فقال: (حدثنا نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّها نزلت من كنز تحت العرش).

والمعنى: أنّها مكنوزة لهذه الأمة ، ومخصوصة بها ، لما جمعته من المعاني والفضائل ، والأسرار والأنوار ، التي

لا يتحمّلها ولا يتحمل نزولها إلا سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

١٢ ـ **ومن فضائل سورة الفاتحة**: ما قد قاله الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في (شرح المهذب):

وَيَقْرأ عند المريض الفاتحة، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين، مع النفخ في اليدين ويمسح المريض بهما، ـ نعم وذلك لأنّ سورة الفاتحة هي كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «شفاء من كل داء».

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث بها على جسده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، كما جاء ذلك في (الصحيحين) وكتب (السنن)، كما كان صلى الله عليه وآله وسلم يفعل ذلك عند النوم أيضاً.

١٣ ـ **ومن فضائل سورة الفاتحة**: أخْرج أبو القاسم سعد بن علي الزنجاني في (فوائده) بسنده، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من دخل المقابر ثم قرأ فاتحة الكتاب، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾و﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ثم قال: جعلت ثواب ما قرأت لأهل المقابر من المؤمنين والمؤمنات كانوا شفعاء له إلى الله تعالى» نقل ذلك صاحب (المرقاة) وغيره.

وفي (المرقاة) عن محمد بن أحمد المروزي قال: سمعت أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول: إذا دخلتم المقابر فاقرؤوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر، فإنه يصل إليهم.

وقد ذكرت في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) الأدلة الكثيرة على وصول ثواب قراءة القرآن الكريم وغيرها إلى الأموات.

هذا وقد رأيت بخط سيدي الإمام الوالد الكريم رضي الله تعالى عنه على هامش بعض كتبه هذين البيتين:

ومجلس أُنسٍ قد طوى بعض عمرنا
ونرجو إلٰه العرش يغفر طالحه
فقلت لصحبي والفتى رَهْنُ فعله
ألا فاختموه للنبيِّ بفاتحه

صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

وفي الختام قال عبد الله الفقير لمولاه:

صلاة الله تترى كل حينٍ
على مَنْ حبُّه روح لروحي
ويصحبها السلام بلا انتهاء
على مَن ريقه منه فُتوحي

وقد تمَّ جمع هذا الكتاب في شهر ربيع الأول سنة / ١٤١١/ هـ بعون الله تعالى وتوفيقه، وأسأل الله تعالى القريب المجيب متوسلاً إليه بجاه الحبيب، سيدنا وروح أرواحنا وقُرَّة أعيننا، الشفيع الأعظم، والرسول الأكرم، الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، وخصَّه بالكتاب المعجز المبين، أسأله سبحانه أن ينفعني بهذا الكتاب، وأن ينفع به، وأن يُضاعف الأجر والثواب

العظيم لسيدي والدي الكريم ، العلامة الشهير ، والعارف الكبير الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى.

وأن يجعلنا الله تعالى جميعاً مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وصلى الله العظيم وسلم على إمام الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعلينا أجمعين في كل وقت وحين ، عدد ما وسعه علم الله تعالى ـ آمين.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحتوى

والحمد لله في البدء والختام وصلى الله وسلّم على سيدنا محمد سيد ولد عدنان وعلى آله وصحبه وسلّم تسلمياً كثيراً كثيراً إلى يوم الدين.

كتب للمؤلف

- حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
- حول تفسير سورة الحجرات .
- حول تفسير سورة قٓ .
- حول تفسير سورة الملك .
- حول تفسير سورة الإنسان .
- حول تفسير سورة الكوثر .
- حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
- هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
- هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
- تلاوة القرآن المجيد ـ فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
- شهادة لا إلَه إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ فضلها ـ معانيها ـ مطالبها .
- سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
- الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
- التقرب إلى الله تعالى : فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
- الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدّين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .
- الصلاة على النّبي ﷺ : أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها .
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال .
- الدعاء : فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن .
- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
- أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح حلب : أقيول

أمام جامع أسامة بن زيد هاتف ٣٦٣٩٣٠٠ ـ ٣٦٢٣٧٥٧